محمود الشمايلة

نسوان حارتنا





نسوان حارتنا

مجموعة قصصية

مجموعة قصصية

نسوان حارتنا

محمود أحمد الشمايلة

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٥/٨/٣٦٦٧)

نسوان حارتنا - مجموعة قصصية: محمود أحمد الشمايلة.

دار البيروني للنشر والتوزيع

الطبعة العربية الأولى - ٢٠١٦

ISBN ٩٧٨-٩٩٥٧-٥٦٨-٨٧-٠ (ردمك)



شركة دار البيروني للنشر والتوزيع
الأردن - عمان - وسط البلد - شارع السلط - بناية رقم (٣٣)
Email beyrouni publisher@gmail com

تصميم وإخراج فني: كمال قاسم
لوحة الغلاف الأمامي للفنان: مهند القسوس
لوحة الغلاف الخلفي للفنان: علاء القسوس

المحتويات

الإهداء

إلى روح والدي ...

إلى أمي ...

وفاء

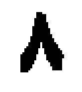
إلى نسوان حارتنا اللواتي صنعن منها وطناً ... استحضار الذاكرة لمراجعة مدى صلاحية إنسانيتنا

إلى بناتي شهد وآلاء

إلى ولدي محمد

إلى زوجتي ...

همسة حب وإخلاص



قالوا في نسوان حارتنا

الدكتور يحيى عبابنة:

كيف يعيدنا محمود الشمايلة إلى لحظة كانت راهنة ويخلع عنا لحظة الواقع الراهن؟ تتميز كتابات محمود الشمايلة في (نسوان حارتنا) بعدد من الميزات التي تحيل القارئ إلى نفسه، فهو يلتقط لحظة من الماضي الذي بات بعيداً عن متناول الذاكرة، ويحيله إلى راهن نابض أخّاذ.... يجعلك تعتقد فعلا بأن هذا الغابر من ثقافتنا القديمة صار واقعاً معيشاً.. وهو قادر في إحالاته المختلفة على ثقافة غابرة أن يشعرك بأن الزمن طويل من لحظة بداية (الحكاية) إلى لحظة تركك دون اهتمام بالنهاية، فبين خروج النساء المهتمات بغسل الصوف في هذا العمل الجماعي الجميل إلى أن يصل إلى عين سارة (النبع العذب) تحس أن الوقت قد طال وطال.. حتى يغدو وقتاً سيكولوجياً لا يتعلّق بالزمن الفعلي، وهو في آخره لا يعيدك إلى القرية بحواريها وشوارعها وبساطة التعامل فيها، ولكنه يرواغك ليتركك في (عين سارة) أمام أكوام الصوف وأغنيات ما عدنا سمعناها منذ زمن بعيد.. أغنيات الفرح والتعاون بين أهل القرى التي تتم ببساطة ووضوح على

طيبة أهلها.. إن مثل هذه الحكايات تمثل سجلاً ثقافياً لمراحل مضت من تاريخ القرية الأردنية، وهو بلا أدنى شك يرسم المكان الأردني رسماً جريئاً وإن كان لا يصنعه كما يفعل أغلب المبدعين الأردنيين الذين يتوارى المكان الأصيل وراء خجلهم من التصريح به.

الأديبة نور أحمد:

"من المفيد أن تعلمَ أن هذه نصوص لا يحبذ أن تقرأ في العلن! فإنه ولو كان عادياً أن تقرأ كتاباً يدعوك للضحك أو آخر يدفعك إلى البكاء فإن "نسوان حارتنا" تموج بك بين هذا وذاك - من سطر لسطر! وليس هذا مما يألفه الناس.. فكأننا على متن بساط حرف طائر يحلق بنا - لو شاء صاحبه- في سماء فرح، أو يهوي بنا - إذا بدا له ذلك- في غياهب حزن ..فتستشعر في كلتا الحالتين كم نحن بشر وكم نحن مثقلون بالحنين ..!

ثم تكبر الحارة فتصير وطناً يلفنا بدفئه ذات برد، وتمتد تجاعيد نسوته لترسم تفاصيله ذات اغتراب وشوق فنأوي إليه تماماً كما كان محمود يلوذ إلى حضن أمه أو جدته .

الكاتب محمد البطوش:

وأنا أقرأ قصص نسوان الحارة أصاب بالدهشة..كيف أنطق محمود كل تلك النسوة؟..كيف استطاع أن يرسم ملامحهن دون ريشة رسام..؟

كأنه دخل إلى خيالنا و حول تراثاً منسياً بوصف دقيق إلى صور، ثم جعل الصور تنبض بالحياة ..لا ادري كيف أرسل كل تلك الأرواح دفعة واحدة ..لعلها عصا موسى أو شيء من هذا القبيل..كم أنت ساحر..!

الدكتور يحيى عيشان:

عمل وجداني يختطف سنين طفولتك بطواعية ويتركك تتنقل بين أزقة حارتك أينما أسقطتها ذاكرتك وتستجمع حكايات كانت يوماً كخطوط الذاكرة cpu واليوم هي كائن حي يتنقل بك وتتنقل به الى حيث لم تكن تدري أنك تدري ...

أستاذنا شكراً لأنك أيقظت فينا ذاكرتنا ..

الكاتب عدنان العطيات:

استطاع الكاتب أن يخرج من حدود الزمان والمكان ليرسم لوحة فنية متكاملة تعبر عن النبض الوطني الأردني بأسلوب سهل قريب للقلب، استخدام الرمزية في هذه القصص التي يشترك بها جميع الأردنيين بكافة انتماءاتهم المناطقية وترتبط بالذاكرة الفردية لكل منهم، رمزية الكاتب تجلت بأن رمز للانتماء للوطن كحالة معنوية بالأم، وكانت الحارة هي الوطن الاردني بجغرافيته و بترابه ومائه وهوائه ، ضم عناصر وشخوص القصة لتعبر عن التمايز بين فئات الشعب بميوله واتجاهاته ومعاناته بطريقة عفوية لا يخطئها القارئ.. "

الأديبة زهرية الصعوب:

حكايات نسوان حارتنا

اجترار الذاكرة من شقوق البيوت القديمة التي تلفها المحبة والطيبة والبساطة ...

بعد أن كبرنا وكبر الوطن فينا

ليس غريباً أن أجدني طفلة ترافق جدتها وهي تتمختر بين أزقة الكلمات

حكايات نسوان حارتنا مساحة ضيقة لإعادة تشكيل وطن .

حنين

عبثا .. أحمل مظلتي الواقية للحنين،تحملنا أرصفة المدن المعلبة إلى حيث لا أدري،،، أغفو كثيرا على وسادة ملآى بالضجر ؛فلا أهنأ بنوم ... أحلامي خالية من الفرح،،، لا شيّ هنا سوى الباروك الذي يجثم فوق صدري ..والكثير من العمر المحمل بالشقاء

كم أشتاقني ..!!!

كنت طفلاً يركض خلف كرة حمراء، ويجوب الحارات وأنا أمسك بردن مدرقة أمي ..وعندما يشتد بي النعاس ألقي برأسي على صدر آية امرأة تشبه أمي،،، أغفو قليلاً على صدر أم ابراهيم ثم تأخذني أم حيدر إليها،،تنهرني أمي وتربت على ظهري أم عدنان، هي قطعة حلوى أعطتني إياها أم صالح كانت لذيذة ...

وعندما تعلمت الكتابة حفرت اسمي وأسماء كل الذين أحببتهم يوماً على جدران أزقة الحارة ....

كبرت ...

كبرت كثيراً ..

كبرت إلى الحد الذي لم أعد فيه أعرفني ...سقطت الجدران وبقيت الأسماء عارية من أصحابها ....

معلم اللغة العربية الذي كان يصفعني كل يوم أصبح صديقي ولم يعد يضربني،،...

لا أدري كم أحتاج من الحنان كي أصير طفلاً ...

ولا أدري كم أحتاج من الصفعات لأعرفني ...

رحيل ونحيب:

كان يوماً مثقلاً بعد أن اكتمل شقائي بمشاهدة سالم في المقهى، في الركن البعيد كان يجلس وقد نالت منه السنون، وجهه شاحب وملابسه رثة، داهمه الشيب على عجل، هو حزين لا أشك في ذلك أبداً، تباً لك يا سالم فوجهك دعوة لئيمة لاستحضار الجزء المؤلم من الذاكرة التي تعصف بي وتحملني إلى أزقة حارتنا ...

كان يوماً اعتيادياً، تدخل أمي ظهراً إلى بيت أم سالم بعد أن تطرق الباب، تحمل في يدها صحن مجدرة نضج للتو، فقد كانت أمي تعلم كنسوان الحارة أن العجوز تعتمد في عيشها على ما تجود به النسوة، تماماً كعصافير الدوري التي تنتظر رزقها من خالقها، كانت العجوز تعبث في صندوقها الصغير وهي تفترش سريرها الحديدي في صدر الغرفة اليتيمة، وما أن سمعت طرق الباب الذي رافق صوت أمي حتى سارعت إلى إخفائه عنها ولكنها لم تستطع أن تخفي دمعتها التي تعرفها أمي جيداً ..

– وحدي الله يا حجة بكرة إن شاء الله سالم برجع مع أولاده ، الله يفرحك فيهم.

- إن شاء الله .... الله كريم.

تضع أمي صحن المجدرة أمام العجوز بعد أن ترفعه على طاولة صغيرة، تناولها ملعقة، تسارع العجوز بالشكر والثناء وهي تحتج بصوتها الذي أجهش في البكاء: لويه يا أم ناصر غلبتي حالكي؟ منوه اللي وده يوكله؟ والله ما إلي خاطر بالأكل.

مع كل شبر نذر، هكذا كانت حياتها، أنجبته في سن متأخرة، مات زوجها و تركها أرملة برفقة طفل رضيع، كبر سالم وكبر همه في قلبها، ابتلعته العاصمة عمان حيث كان يعمل، كان يزورها كل شهر مرة، وبعد أن تزوج صار يزورها في شهر رمضان فقط.

خمسة أعوام مضت على زواجه، تخللتها خمس زيارات بخمس أوراق نقدية حمراء كان يعطيها لأمه، هكذا كانت تعد سنين غيابه، و هكذا تركها تصارع الوحدة و المرض، الأنين والانتظار، لم تعد تملك شيئاً منه سوى رائحة يده التي لامست الأوراق النقدية التي احتفظت بها ربما كانت ستمنحها لأولاده الذين لم تقابلهم بعد ...أو ربما زوجته التي لا تعرفها.

على عتبة البيت، تمارس صباحاتها في الانتظار، تراقب غبار الشارع الممتد وتتعلق روحها بكل القادمين من عمان أو الذاهبين إليها، فربما قابلوا سالم أو إنهم سيقابلونه أو ربما سيحظون بتنفس هواء عمان الذي يتنفسه سالم .

في ذلك الصباح لا أعلم إن كانت تغني أم أنها تنتحب، كان عليّ أن أركز أكثر في صوتها المبحوح، أخيرا استطعت أن أميّز ما تقول:

يا ولد دربك على عمان   يا مسكن الشوق وأحبابي

يا ربي يا جايب الغياب واتجيب للدار راعيها

واتجيبي سالم كحيل العين يا جروح قلبي يداويها ..

لم يأتِ سالم بعد، والموكب الجنائزي في طريقه إلى مقبرة الحي، وارينا جسدها المثقل بالأشواق إلى التراب ليبتلعها قبر موحش لا رائحة لولدها فيه.

جاء سالم ليتفقد أغراض أمه، راح يبحث في أشيائها، فتح صندوقها الصغير، خمس أوراق نقدية حمراء بالتمام والكمال ....هي ما كان يعتقد أنه يدفعها ثمناً للأمومة ...

صرخ سالم بعدها صرخة وقفت في حلقه غصة لم يستطع أن يبتلعها،

عكّاز أم سالم، جدران غرفتها الصغيرة، ملابسها الرثة، حذاؤها البلاستيكي الصغير وحتى عتبة البيت ظلت تنتحب حزناً عليها، فقد رحلت قبل أن تعانق ولدها و تقبل جبين أطفاله .

قبل أن تغيب الشمس، غادرت المقهى وفي نفسي أن ألقيها تحت قدمي أمي...

الخوري دنيامس:

في شارع الخضر ثمة الكثير من المفارقات، فليس غريباً أن تجد أحداً الفقراء مثلاً يرتدي بذلة جميلة وربطة عنق أنيقة، يضع ساقاً على أخرى ويجلس أمام دكان المكّاوي الذي يبيع الحلويات الشامية ، وإذا سألته فهو يجيبك بـ (صيت الغنى ولا صيت الفقر) والشارع هنا ممتلىء بكليهما .

أم اسماعيل بوجهها المشرق كشمس نيسان، تغادر الزقاق المجاور للخضر، تدخل دكان (منغو) تتناول طبق بيض و تأمره أن (يقيّده على الدفتر) . قالت: ودي أروح أطل على مرة أبونا الخوري دنياميس، امبارح طلعت من المستشفى، المسكينة وقعت من أعلى الدرج وانكسرت إجرها.

في الحقيقة صاحب الدكان لم يسألها هي تكلمت بنفسها كالعادة وطبق البيض (طلة).

أحمد منغو لم يستغرب ذلك وقيد في دفتره في صفحة أم اسماعيل (طبق بيض طلة لمرة أبونا الخوري).

دعوة معلقة على يافطة كبيرة في منتصف الشارع لحضور ندوة عن التعايش المسيحي المسلم في قاعة الشهيد هزاع سيحاضر فيها ضيوف من المحكمة الكنسية في القدس وعميد كلية الشريعة في جامعة مؤتة، أم اسماعيل لا تعرف القراءة أبداً.

في شارع الخضر ليس غريبا أن تجد محلاً لبيع الفاكهة بأصنافها المختلفة ويقابله محل بالة يبيع الأحذية الأوروبية، حتماً ستجد أسماء مشاهير العالم نقشت على تلك الأحذية، عبده المصري الذي يفترش الرصيف أمام حلويات الخيام لو قدر له أن يمسح حذاءه من الطين لوجدنا اسم (مارادونا) مطبوع عليه بخط فاخر جداً.

عند نقطة التقاء شارع الخضر بشارع طلال عليك التوجه غرباً للوصول إلى المسجد العمري وفي الزاوية الشمالية الشرقية المقابلة للمسجد ستجد كنيسة الروم الأرثوذوكس .

الخوري دنيامس صاحب اللحية السوداء العريضة يقف أمام الكنيسة وهو يمسح سيارته بخرقة مبلولة، يرتدي ملاءته السوداء و تتوسه (طاقية الخوري) ويفترش صدره صليب ذهبي كبير، المصلون يخرجون من الباب الشمالي للمسجد العمري يلقون السلام ويغادرون، الحج ابراهيم نادى بصوت عال (كيف حالك يا أبونا؟)، لم يكتف بذلك بل سار إلى الخوري وصافحه وألقى عليه الكثير من السلام ... يا أبونا حمداً لله على سلامة زوجتك .

الخوري يدعو الحاج ابراهيم لشرب الشاي في الدير، والحاج يعتذر لانشغاله في أمور كثيرة ولكنه وعده أن يعود المريضة في وقت آخر ...

العمالة الوافدة من المصريين تفترش الأرصفة أمام المقهى، وثمة أقدام تدب في الأرض صعوداً ونزولاً، وجوه أرهقها التعب وأخرى أرهقها الانتظار،

راكان الضمور صاحب استديو صوت الكرك يحلو له سماع ميسون الصناع على أنغام عود جمال الشمايلة، الهجيني اعتاد الناس أن يسمعوه قبل الغروب وأبو أشرف يصر على أن لا يخذلهم .

ميسون تصدح فرحاً وفي قلبها الكثير من الألم، كـ سكان الشارع .

في شارع الخضر ثمة الكثير من الصمت والألم.

الخضر لمين؟!

(كنيسة القديس جنورجيوس):

أم متري البقاعين تغادر المكان غاضبة وهي ترطن وتولول، وبعد أن قطعت مسافة لا بأس بها راحت تشتم أم عبد القادر التي التقتها مع مجموعة من النسوة عند زاوية الخضر .

أم متري تلك المرأة السبعينية التي ترتدي مدرقة سوداء خالية من التطريز وتضع فوق رأسها (عصابة رأس سوداء أيضا) وتركت جدائلها التي اختلط الشيب بسوادها تلاحقها جاءت تتوسل للخضر لعله يشفع لها عند الرب ليرزق ابنها الوحيد بطفل فقد مضى على زواجه خمس سنوات دون جدوى .

أم عبد القادر امرأة بدينة تسكن بجوار الخضر استضافت جوقة من نسوة الحارة وافترشن البسطة المواربة للخضر على إبريق شاي كبير نضج تواً .

هذه الجوقة راحت تطلق الكلمات المسمومة على أم متري وعندما حاولت الرد كانت ردة فعل أم عبد القادر عنيفة فقالت لها (يا مره انت لويش جايه عنّا؟ هذا الخضر لينا .... انقلعي من هانا) .

لم تغب أم متري كثيراً فقد عادت ومعها الخوري إيليا وبعض الرجال الذين يسيرون خلفه، كان الخوري صاحب لحية كبيرة يختبيء خلف ملاءة سوداء واسعة ويضع على صدره صليب كبير الحجم ويتعكز على عصا حديدية مزركشة بالإضافة إلى برنس الإيمان الذي يغطي رأسه .

وما هي إلا لحظات حتى قامت أم عبد القادر بدورها ولمت أهل الشارع لاستقبال وفد التيار المسيحي عند الخضر.

الغضب يملأ الوجوه ويخيم على المكان، بدأ السجال الجماعي، تعالت أصوات الطرفين، والخوري عبثا يحاول أن يشرح قصة الخضر ويبين أهميته بالنسبة للمسيحين .

صوت غاضب جاء من الخلف يقول باستغراب: بدكوا تسرقوا الخضر منا عيني عينك؟.. فشرت لحيتك والخوري إيليا يلوذ بالصمت وهو يمسد لحيته الكبيرة .

يطول الأمر والسجال قائم ومحاولات لتحويل الصراع إلى عنف ولكن المسيحيين كانوا أكثر صبراً .

الخوري يقر لسكان الشارع بحقهم في الخضر ويعرض عليهم اللجوء إلى التحكيم، يوافق الجميع، وأحد الأشخاص ينادي بهم للمثول أمام شيخ المسجد العمري، الخوري إيليا يقبل لمعرفته السابقة بشيخ المسجد فهو رجل

حكيم ومتعلم و جاره وصديق الطفولة في القرية إنه الشيخ صالح وليس لديه مانع في أن يكون الشيخ صالح الخصم والحكم .

اجتمع الطرفان في ساحة المسجد العمري وقدم الخوري حجته في ملكية الخضر وأهميته للمسيحيين وقد تعرض لقصة موسى عليه السلام.

بعد أن سمع حجة الخوري أورد الشيخ صالح حجة المسلمين وشرح لهم قصة الخضر مع سيدنا موسى عليه السلام في خطبة طويلة ويبدو أنه كان يعرفهم بدينهم خاصة أنه شاهد الكثير من الوجوه التي لم تدخل المسجد طوال حياتها .

حمد الله وأثنى عليه ثم صمت برهة حتى التقت عيناه بعيني الخوري ونطق بالحكم فقال:

(الخضر إلنا والمفتاح إلكو) وبموجب هذا الاتفاق لن يستطيع أحد أن يمنع المسيحيين من دخول المقام.

خرج الجميع سعداء بالحل باستثناء أم عبد القادر لانها وبموجب هذا الاتفاق لن تستطيع أن تعترض أم متري أو غيرها فيما لو زاروا الخضر.

مواسم غسيل الصوف:

الشارع يقسم الحي إلى نصفين، والأزقة أوردة مكشوفة تضخ الحياة في البيوت المنتشرة، قالت أمي: عليك أن تزورها كلها،الحدث لا يحتمل التأخير.

أمي فاطمة توصيني أن لا أنسى أحداً، لذلك أخذت الشارع من أوله ثم الدخول إلى الأزقة المترامية على أطراف الشارع .

صباح الخير خالتي أم حسين: بتسلم عليكي أمي وبتقول لكي بكرة الصبح ودنا نغسل صوف ناصر على سيل الكرك .

أم حسين: يا ريته مبروك إن شاء الله ..

تلوذ إلى الداخل وصوت زغرودة طويلة يقتحم أذني .

هكذا كان الصباح ولا أدري كم من الوقت أنفقته لأكمل الجزء الأول من مشروع أمي .

صباح استثنائي، تختلط فيه رائحة القرفة والقهوة بفرحة أمي ..حوش الدار محطة انتظار احتفالية .

أم ابراهيم – الحجة جميلة– كالعادة ما إن تدخل حتى تبدأ التغريد بصوتها الملائكي وتثير شجون القلب ..

وسع الميدان يا بيٍّ ناصر وسع الميدان ...

الفرحة للصبيان والعز لك الفرحة للصبيان ...

يلتحق بركبها الغنائي جوقة نسائية وترد عليها ...

جدتي نجمة تفسح مجالاً لأم ابراهيم للجلوس بجانبها لتردد معها الرويد الذي تفهمه جيدا ...

هكذا يكتمل الصباح .... وزغرودة أمي إعلان لتراتيل الفرح .

باص الشهابية ينتصب بزهو أمام بيتنا ويبتلع النسوة، إحدى الصبايا تنادي شقيقتي وهي تمد رأسها من نافذة الباص: يا انتصار لا تنسي الدربكة ...

طلوا الخيول من ورا التلين ...كلهم نشامى مبرشمين الخيلِ

يا مرحبا وان كان ناصر معهم... وان كان محمد عازم الصفين

واحنا الشموليات هيه بهيه ...خيل الأصايل واردة ع المية

كان الوقت مبكراً جداً ...

يشتد حماس الصبايا مع الولوج إلى شارع الخضر ...وأم فتحي تخرج باكيت الكمال من جيبها وتشعل سيجارة .

مع استنفاد كلمات الأغنية كان الباص قد وصل إلى عين سارة و، والدي كان قد أعد شوالات الصوف على ضفاف السيل .

مائة وعشرون رطلاً من الصوف في انتظار سواعد الخير، والسيل نبي كهل رسالته تعميد فرحة الكرك ومباركتها.

بركة كبيرة صنعتها النسوة من حجارة السيل، توزعت المهام بطريقة عفوية، شمّرت العجائز المدارق السوداء المطرزة دون أن يخلعن صباط البلاستيك من أقدامهن ونزل بعضهن إلى الماء فيما بقي عدد منهن لتفريغ الصوف من الشوالات ثم انتشاله للنشر مرة أخرى ... من الواضح جداً أن النسوة تفهم كرنفال الصوف جيداً .

لمي يا لمي وحشيلي مخداتي

طلعت من البيت ما ودعت خياتي

لمي يالمي وشديلي عا المودع

الليل عندكو وبكره الصبح نتودع

جدتي نجمة تغادر البركة وتسحب أم إبراهيم من ردن المدرقة وهي تصدح بالترويدة، أومأت لها بالمغادرة، والجلوس على صخرة على ضفاف السيل، فعلت ذلك حتى لا تكسر إيقاع النسوة وأمي كانت مشغولة بتوزيع الخدمات اللوجستية على المشاركين .

الشمس في كبد السماء، إعلان انتهاء العمل، في تلك الأثناء كان والدي وبعض الرجال قد انتهوا من طبخ المنسف، أحدهم كان يعمد النار المشتعلة بالحطب من مياه السيل ليطفئها.

أسبوع العمل والفرح ....

بعد نفش الصوف، المنجد قام بتحويله إلى اثنتي عشرة فرشة وعشرة لحافات وثماني عشرة مخدة ... ومنهض الوهد يمتلىء بالألوان الزاهية كوجه أمي .

جدتي غيبها الموت على عجل، أم عدنان، أم حيدر، أم سميح، أم حسين والدي ثم جدي ..

أم ابراهيم تعيش الاغتراب في انتظار اللقاء

وما زلت أشفق على دمعة أمي مني ...

حوش الدار أصبح ذاكرة للتعذيب بالحواس، سيل الكرك ما زال يذرف دمعاً ....

أم عبد القادر:

الشمس تغادر مهجعها، والزقاق المقابل للخضر تفترشه مجموعة من النسوة اللاتي توشحن السواد، مدارق مطرزة، عصابة رأس وبعض الأحاديث المبتذلة وربما بعض الدموع في انتظار صاحبة الديوان التي تستمع جيدا للنسوة وتعمل على مواساتهن بفيض من الحب .

من جوف الزقاق تطل أم عبدالقادر بكامل هيبة السبعين، امرأة ممتلئة صاحبة شخصية قوية بصفات قيادية ؛ ربما لأنها الأكبر سناً تمتلك فصاحة التهكم، ساخرة لا يعجبها العجب ولا الصيام في رجب، سليطة اللسان ترتدي مدرقة سوداء وتحمل على كتفها عباءة المرحوم لتغطي رأسها إن لزم الأمر، تتعكز على عصا خشبية معقوفة وفي يدها الأخرى سخان قهوة سادة وفي جيبها بعض الفناجين .

تقف النسوة احتراماً، تلاقي إحداهن أم عبدالقادر لتساعدها على حمل سخان القهوة و لتسندها،ترفض أم عبدالقادر أن تتكيء عليها وتنكزها بعصاها مازحة بحجة أنها ما زالت بكامل شبابها.

مراسم ترحيب استثنائية تحظى بها أم عبدالقادر في ديوانها من قبل نسوة الحارة تفترش (جنبية صوفية) وتسند ظهرها إلى الحائط وتتكيء على ثلاث مخدات محشوة بالتبن والصوف، تبدأ طقوس رد التحايا التي انهالت عليها من قبل المارين بشارع الخضر .

ديوان أم عبد القادر، صالون سياسي ثقافي يتحول في أحيان كثيرة إلى مقهى يقدم المشروبات مجاناً، خادمتها الآسيوية لا تهدأ بعد أن فهمت لغة الإشارة التي تخاطبها بها .

الديوان قد يمتد إلى آخر الزقاق إذا لزم الأمر، وتتقلب وجوه ضيوفها في الزقاق على امتداد النهار خاصة أن الديوان لا يغلق أبدا ....

في هذا الديوان استطاعت أم عبد القادر أن تضبط إيقاع الشارع كما يحلو لها، كيف لا؟! وهي تعد نفسها جدة كل الصغار والأم الرؤوم لكل سكان الشارع . ومما يدل على ذكائها وحنكتها وقوتها، تلك المرأة الحزينة (أم إبراهيم) التي أصرت أم عبد القادر أن تعرف سبب حزنها، فقالت أن زوجها ضربها ليلة أمس، ابتسمت أم عبد القادر وقالت لها هذا ليس سبباً كافياً للحزن فهو زوجك ومن حقه عليك الطاعة، ولا أحد يدري أن أم عبد القادر كان في داخلها بركان على وشك الإنفجار ...

تقف على ناصية الشارع وهي تدق بعصاها الأرض تنظر لأسفل الشارع ثم تعود إلى حيث كانت، التوتر بدا واضحاً، يسألها أحد الرجال مازحاً:

يا أم عبد القادر لماذا لا تسترين رأسك بالعباءة؟ هذه ليست عادتك .

تدك بعصاها الأرض وتنظر إليه بازدراء وتعيد السؤال:

وينهم الرجال؟ هو ظل فيها رجال أخبي راسي عنهم؟

يصمت الرجل ويولي هارباً خوفاً من سلاطة لسانها،

أبو ابراهيم يقترب، أم عبد القادر تتنفس بعمق تسند ظهرها للحائط لتختفي عن أنظار أم ابراهيم ربما تكون واقفة على الشباك .فهي لا تريد أن تعلم أم ابراهيم ما سيحل بزوجها من تقريع، تنادي أبا ابراهيم بصوت غاضب ....

فيجيب: نعم يا حجة .

أنت حاسب حالك زلمة يا سقيطة؟؟، بتمد إيدك على حرمة يا حرمة !!

وتبدأ سيلاً من الكلمات الحارقة للنفس، مجموعة من الرجال تقترب من أم عبدالقادر وبعضهم كان يعتقد أن أحداً ما قد أساء لها، ليس هناك من يتحدث غيرها والرجل يتوسل .

تهدده بأنها ستأخذ زوجتة وأولاده إلى بيتها إذا أقدم على ضربها مرة أخرى، والرجل يقسم على ذلك ، و أم ابراهيم لا تدري ماذا حصل في الشارع غير أنها تسمع أصواتاً مبهمة ....

الخضر، الزقاق، جنبية وبعض الوسائد محشوة بالتبن، مقاعد مصنوعة من أطباق البيض .

حكايات تاهت في الفضاء دموع الجارات،عباءتها كل ذلك وأكثر ظل حبيس الشارع حينما أودعنا جثمانها الطاهر إلى مقبرة النبي نوح ...

الديوان لم يفتح بعد ذلك أبداً.

الست شعاع القسوس :

ويحدث للأمكنة أيضاً أن تتنازل عن أسمائها حباً وطواعية لساكنيها، تلغي نفسها أمام عظمة من منحتهم شرف الانتماء إليها ؛ فيلعبون أدوارهم بمهارة واقتدار ليصبحوا ركناً تهوي إليه الأفئدة و محجاً يؤتى إليه من كل فج عميق ... هكذا أطلق الكركيون على مدرسة بنات الكرك الإعدادية اسم (مدرسة شعاع).

لم يكن صباحاً استثنائياً ؛ كالعادة غادرت الست شعاع بيتها بعد أن رسمت ابتسامة جادة ربما سترافقها طوال يومها الدراسي، ليس هذا فقط بل ستواجه بها سكان شارع القلعة وأصحاب المحال التجارية الذين تعودوا على الوقوف على عتبات الدكاكين لينالوا شرف إلقاء تحية الصباح عليها ..

تصعد من حارة الأغوات غرب الشارع، حتى تصل إلى الزقاق الطويل الذي يقسم حارة المعايطة إلى قسمين لتجد نفسها في وسط شارع القلعة، لم تكن بحاجة إلى ركوب وسيلة مواصلات ؛ فالمدرسة ليست بعيدة من هنا .

تمشي الهوينا، تتمختر بخيلاء، ممشوقة القوام بيضاء البشرة، عيناها واسعتان كعيون المها، أنيقة وجادة، واثقة، وزاد من وقارها ذلك الشال الذي كانت تغطي رأسها فيه، الأمر الذي جعل منها سيدة العلم في الكرك في زمن بات فيه القلم أحدّ من نصل السيف ..

هي صباحات الست شعاع في شارع القلعة، التجار يصطفون على عتبات الدكاكين، الكثير من الفتيات يتسابقن ويتنافسن في إلقاء التحايا ومرافقتها حتى المدرسة، تقترب من المدرسة أكثر، طالب من المدرسة الثانوية يقف على عتبة إحدى الدكاكين، ما أن شاهد الست شعاع حتى سارع إلى إخفاء سيجارته في جيب جاكيته ليكتشف بعدها أنها احترقت .

صباحات الست شعاع ....

تغادر الحجة ختمة بيتها بعدما ارتدت أجمل ثيابها مدرقة مطرزة وجبة خضراء و صباط بلاستيك جديد أحضره الحاج نافع من الخليل مؤخراً، وتحمل في يدها سلة قصب في داخلها خمسة وعشرون بيضة بلدية، تلقي التحية على جدتي فتبادرها السؤال:

-وين ادكي يا حجة على هالصبح؟ بشوفك لابسة اللي على الحبل خير إن شاء الله ويش فيه؟

الحجة ختمة: والله ودي أروح على مدرسة شعاع امبارح طالبة من سالمة ٢٥ قرش رسوم للمدرسة .. يا خيتي أنا من وين ودي أجيب والبنت بتصيح على راسي وخايفة منها؟؟.

لا أحد يعلم سر الخوف من الست شعاع، الطفلة سالمة لم تنم تلك الليلة، ولم يذكر أحد أن الست شعاع قد استخدمت العنف مع طالباتها، سالمة قالت لا أريد أن تغضب الست شعاع مني ربما كان السر في شخصيتها القوية أو ربما في حنانها وحبها لطالبات المدرسة .

في الوقت الذي كانت فيه الست شعاع تلقي بخطابها الصباحي على طابور الطالبات، كانت الحجة ختمة تقطع شارع الخضر باتجاه شارع القلعة، ما هي إلاّ لحظات حتى كانت على باب المدرسة .

لم يسبق للحجة ختمة أن قابلت شعاع،هي فقط عاشت الهالة التي صنعها الأهالي حولها، في كثير من الأحيان كانت نسوان حارتنا يتحدثن عن نبل وعلم الست شعاع .

ثمة شيء من الخوف تسرب إلى قلب الحجة ختمه بعد أن سمعت صوتاً حازماً ينهر الطالبات، مما جعلها تبحث عن طريقة مناسبة للحديث مع النبلاء، أو ربما التراجع عن فكرة استبدال الرسوم المدرسية بالبيض البلدي ولكنها سرعان ما تذكرت دموع ابنتها سالمة.

تقف أمام الباب، تعيد ترتيب هندامها، تخلع صباطها البلاستيكي وتدخل حافية القدمين، تتقدم على إيقاع الكثير من الصباحات والسلام تحضن الست شعاع وتقبلها على وجنتيها ذات اليمين وذات الشمال، تبتسم الست الشعاع و هي ترد السلام، لم تترك الحجة ختمة مدحاً تعرفه إلاّ وقالته في حضرة الست شعاع، ثم ألحقته بالكثير من الدعاء، قدمت عرضها السخي على المديرة التي قبلت به عن طيب خاطر .

الست شعاع اشترت البيض ، ودفعت ثمنه رسوماً للمدرسة عن الطالبة سالمة نافع، تبدو الصفقة مرضية ، لم تفكر بمدى حاجتها للبيض بقدر ما كانت تفكر في إرضاء الحجة ختمة التي خرجت سعيدة بنجاحها ....

مدرسة شعاع الإعدادية تغلق أبوابها لهذا اليوم، تغادر الطالبات المدرسة على أمل اللقاء غداً ...

الطفلة سالمة، تمسك بيد زميلاتها من الصف السادس الابتدائي ليشكلن حلقة دائرية و أصوات طفولية تتعالى في حارتنا..

الدنيا برد الدنيا برد ...الست شعاع بتلقط ورد ..

تفتح الحجة سالمة أم محمد عينيها وتجلس حفيدها في حجرها، تبتسم على إيقاع دمعة ارتكبت جريمة بحق وجنتيها، وهي تجتر ذاكرتها المشبعة بالفرح والألم ..ثم راحت تغني بصوت يخالطه البكاء

الدنيا برد الدنيا برد .. الست شعاع بتلقط ورد.

مواسم الشلبي لمطاهري:

قذيفة بلاستيكية بيد أمي أصابت ظهري وأنا هارب، القذيفة الأخرى أخطأتني وأصابت الباب الحديدي، وهي تسب وتشتم: يخس الله يلعنك ، مثل القرد ......يا عيّل

والله الأرض إلي بتطا عليها بتقول أخ منك.

ليس غريباً تصرف أمي فقد أوقعتُ سطل الماء في البيت بعد أن انتهت من شطفه تماماً . الهروب لساعات من البيت سيكون كافياً لتنسى وعدها بالعقاب وتكتفي بالقذيفة البلاستيكية التي أصابتني، عدت إلى البيت ظهراً، كان والدي قد حضر مبكراً، لم ألقِ السلام واكتفيت بمراقبتهما تحسباً لأي شيء .

الابتسامة تملأ وجه أمي ثم تبعتها ابتسامة والدي، شعرت بالزهو لا بد أنهما يفخران بي، ولكن عدت عن ذلك بعد أن راجعت نفسي فأنا لا أفعل إلا السوء .

تناديني أمي بود وحنان: تعال يا محمود خليني أقيس الثوب عليك .

أمي ليست غاضبة لأنها لم تناديني بـ (يا عيل)، كان ثوباً أبيض جميلاً كثوب والدي ويناسبني تماماً،

صوت خال أمي الحج نافع الذي ما زال مفجوعاً على ولده نايف الذي استشهد في روسيا عندما كان يدرس الطب يكسر صمت المكان (يا أهل الدار يا أهل دار) تخرج أمي بكثير من الترحاب، يقف أمام البيت وهو يجر شاة سمينة و يقول: (هذي العنز حلوان العيل) مبروك ...

يخرج والدي ويعاتبه على هديته يشتد العتاب بينهما وأنا أغيب في جب الخوف .

يستسلم أبي ويسحب الشاة ويربطها مع شاتين كان قد أحضرهما ليلة الأمس .

أمي تحكم إغلاق الأبواب وتمنعني من الخروج وهي تربت على ظهري، لحظات حتى يمتلىء البيت بنسوة الحارة وأطفالهن، في تلك الأثناء عرفت أن الشلبي (المطاهري) قادم لا محالة ....

لحظة وصول الشلبي يختلط بكائي بزغاريد أمي وزغاريد نسوان الحارة، رجل أبيض قصير أصلع الرأس ممتلىء وكأنه يختبىء خلف بطن مترهل ، يرتدي قميصاً أبيض مقلماً وبنطالاً أسود رفعه إلى نصف بطنه، يحمل في يده حقيبة سوداء، جلس على المقعد وراح يمسح نظارته بعناية فائقة ويلوذ بصمت عميق.

في الزاوية البعيدة تجلس أم ابراهيم تحمل بين ذراعيها ابن ولدها ابراهيم الذي لم يتجاوز عاماً من عمره تقذفه في الهواء ثم تلتقطه وهي تردد:

زبيرته يا غرا//لا تطلعي برا

زبيرته مزبرته// بنية عمه مرته

مطاهري يا مطاهري// لا توجع ولدي

هذا محمد طاهري// هذا محمد سندي

الطفل يضحك ويعلو صوته، وأنا أتمنى لو كنت نسياً منسياً ...

البيت يمتليء بحضور المطاهري، الذي بدأ عمله بالطفل الأول، لم أستطع مشاهدة ما فعله لكني شعرت بكل ذلك الألم الذي تلبسني بعد صراخ الطفل

أحشر نفسي خلف منهض الوهد في الغرفة المجاورة وأسمع أهازيج بعض النسوة

طهره يا مطهر ومده ع أمه ......يا دمعة الزين سالت ع كمه.

.طهره يا مطهر ومده ع خاله ....يا دمعة الزين طاحت ع حاله

صوت الحجة آمنة يعلو: اتركيه يا شينه بطيب من بوله لا تخافي ...

خمسة أو ربما ستة ضحايا لم أعد اذكر، كل شيء هنا أصبح يخيفني حتى زغرودة أمي، ينتشلني أبي ويجرني إلى قبضة الشلبي، يخنقني والدي ويعلق زر قميصه بأذني فيجرحها يسيل دمي، أسب الشلبي وأشتم أمه بكلمات بذيئة، يقذفني بابتسامته وكأنه يشمت بي ....

انتهى كل شيء .....

تشير أمي للنسوة الغداء جاهز ....

.صباحات حارتنا ومواسم الفرح، صبيان بثياب بيضاء ملطخة باليود من بينهم ثوبي، لا أحد يشعر بالخجل ربما بعض الألم فقط ....وضحكات هنا وهناك وقصص يرويها الأطفال عن الشلبي

سيارة الشلبي الفوكس الخضراء تشبه وجه جدتي

في حضرة الحج نافع، الحكايات ذكرى على طبق من ألم، و الرجال أيضا يدمعون.

البوت الصيني:

الشارع الإسفلتي الذي أكل نصف حذائي حبل سري يربط بيوت الحي بالمدرسة، كان عليّ أن أقطعه كل يوم ذهاباً وإياباً كبقية صبيان الحي .

نجحت أمي في إقناع والدي بشراء حذاء جديد خاصة بعد أن كشفت عليه وأصابتها الدهشة من قدرة تحملي للألم، فقد كان ضيقاً وآثار الشارع التصقت بأصابعي، والفردة اليمنى نصفها بلا أرضية.

حذائي الجديد بلونه الكحلي الغامق يتوسطه خط أبيض، حلقاته البيضاء، فرزاته التي تجعلني أطير، و ربّاطه الأبيض .والرائحة التي كانت تخرج من الكرتونة، أشياء أسعدت قلبي الصغير ولا شك أنه سيخفف من الألم الذي لحق بقدميّ العاريتين.

قال والدي إنه اشتراه من دكان الشلبي الواقع في الشارع الرئيسي بدينار وربع.

في كل عام يزداد حجم قدمي نمرة واحدة،هذا تقدير والدي، أربع وثلاثون هي النمرة الجديدة التي يجب عليّ أن أحفظها حتى العام القادم .

ينتصب الحذاء أمامي، أراقبه من كل الجهات، ولا أذكر عدد المرات التي جربته فيها وأنا في شوق لارتدائه غداً للذهاب إلى المدرسة، أوصاني أبي قائلا: يا عيّل دير بالك اتخرب البوت عارفك قرد. فيما قالت أمي بزهو: هذا البوت عاد وده قراية مو بس للعب.

لا أدري كيف سأحافظ عليه؟ هل أحمله في يدي وارتديه على أبواب المدرسة؟ فكرة سخيفة ولكن بالإمكان أن أوفره أثناء لعب الفطبول في الشارع والاكتفاء بالحذاء القديم ولكن أمي كانت قد ألقت به في برميل الزبالة، وجمعة المصري عامل النظافة كان قد أخذ كل شيء.

هو الصباح المشرق، لا أدري إن كنت قد غسلت وجهي فقد كنت معنياً في ارتداء الحذاء الجديد، فرزات البوت ترفعني قليلا عن الأرض وأنا أشعر بالطيران، ربما هو الزهو والفرح، شعرت بأن كل الحي ينظر إلى حذائي ويحسدونني عليه، كدت أتعثر بخطواتي خجلاً، ألقي تحية الصباح على جدي أبو علي حيث كان يجلس على باب دكانه الفارغ وسيجارة الريم نسيها في فمه، يرد التحية ولكنه لم ينتبه إلى الحذاء .... أعطاني نصف دينار وطلب مني أن أشتري باكيتين دخان ريم من دكان ذيب، كان ذلك اختبار عملي للسرعة بحذاء جديد .

أقف في الطابور الصباحي وأنا أبتسم، الأستاذ عدنان مدير المدرسة يلوّح بعصاه السوداء و ينهال علينا بالسب والشتم، بعض الأولاد لحقتهم صفعة وربما ضربة بالعصا.

فيما كنت أتمنى أن ينتبه لحذائي حتى لو كان في ذلك صفعة أو بزقة أو حتى ركلة قدم.

في الحقيقة الأستاذ عدنان لا يحتاج أسباباً لمعاقبة الطلاب هو يفعل ذلك سلفاً على اعتبار ما سيكون فهو دائما يردد (عارفكو وسخين لعنة الله عليكو يا همل)

في المقعد الأول أجلس واضعاً قدماً على قدم وألوّح بهما، والأستاذ المصري سعيد الفيومي معلم العلوم يشرح لنا أشياء لا أعرفها، عبثاً أحاول أن ألفت انتباهه للحذاء دون جدوى...

ما هي مكونات الماء؟؟

سؤال أطلقه الأستاذ سعيد، هذه فرصتي، أقفز من مقعدي وأضع أصبعي في وجه الأستاذ، يعلو صوتي فوق جميع الأصوات: (يا ستاذ يا ستاذ أنا يا ستاذ يا ستاذ

لم يجد الأستاذ سعيد أمامه إلاّ أن يختارني ...(ايوه ياد عاوز تئول ايه؟؟؟

إجابة غبية وربما تافهة ....

ياد انت بتئول ايه، ايه الكلام ده، يا حمار انت مبتفهمش، كان يمسك بأذني ويسحبها مع كل كلمة يقولها ....

ضحكات الطلبة تملأ المكان وأنا أغيب في سذاجتي...

الطريق يأكل الحذاء والشمس فعلت فعلها، أصبح الحذاء باهتاً بلونه السكني المغبر وأصبح كأحذية صبيان الحي فقد صدارته ورونقه،

نسوان الحارة في ديوان أمي، وما إن خلعت الحذاء حتى صاحت فاطمة (يا عيل اقلب وجهك ريحة اجريك بتقتل حمار يلعنك ويلعن بوتك معك ..

أنا وحذائي وسط الشارع الطويل، أصوات مبهمة وربما تراتيل كانت تقولها جدتي نجمة

طفولتي الساذجة لم تشفع لي ....ما زلت أبحث عنها وفي وجوه نسوان حارتنا...

أم ابراهيم جميلة بقايا فرح .. ودمعة أمي بركان يشتعل في صدري.....

سكارة كمال:

صوت أم ابراهيم الشجي يسحبني إلى رحم الزقاق، أقترب منها أكثر، تصفعني بسؤالها الاعتيادي ..

- من انت يا عيل؟!

- أنا محمود ابن فاطمة .

- يه؟! شلون امك يا عيل وشلون جدتك ..... هي جدتك رجعت من دار يحيى.؟

- اه والله رجعت وهييه عند أمي قاعدة في الحوش .

تدس يدها في جيبها وتخرج قطعتين نقدتين هما عشرة قروش ثم أردفت تقول:

- يا عيل روح على دكان الحجة ختمة وجيب لي أربع سكارات كمال وخذ هاظ الشلن chروة ليك ودير بالك اصحى اطول .

عفية ابنيّ مثل الذيب ودي اياك ....

كالذيب .... أصعد الشارع، أمر من باب بيتنا وأمي ما تزال ترش الزريعة التي تسكن التنك الصديء بالماء كعادتها تقذفني بسؤالها التهكمي :

- وين ادك يا عيل بطشش ع هالصبح؟؟ لعنة الله عليك ما بتعرف تقعد.. ما عليك قراية؟؟؟

- يمه المدارس معطلة وأم ابراهيم بعثتني أجيب ليها دخان من دكان الحجة ختمة .

- يا عيل الحجة ختمة مي هانا راحت من الصبح على المدينة ودها الصحية والدكان مسكرة.

الدكان مغلق فعلا ....أشعر بالخيبة، ...أعود إلى زقاق أم ابراهيم بخيبتي ولا أعلم مصير ال chروه فيما إذا كانت مشروطة بسكارة الكمال أم بتعب المشوار؟!...

أم ابراهيم تجلس على عتبة بيتها في انتظاري أو ربما في انتظار السكارة ..

- الدكان مسكرة يا حجة .

- وين رايحه ختمة ملعون أبو أبوها معيطي في قبره ..وين بطشش ع هالصبح؟!

- أمي بتقول إنها رايحة على المدينة، ودها الصحية مريضة .

أم ابراهيم بغضب: ما اترد ان شاء الله ...درب العثرة ..

أعيد القطعتين النقديتين إليها وفي نفسي أن تعطيني إحداهما ..

تدس يدها في جيبها مرة أخرى وتخرج حبة حلو ناشد قالت أنها من عندch نتنا حلوان ابنها الجديد، ثم طلبت مني أن أحضر لها سيكارة كمال من عند أم صالح و أوصتني أن أكون مثل الذيب وأن لا أتأخر ....

غادرت الزقاق دون أن أنظر خلفي ...كانت أمي قد انتهت من أعمالها في الحوش وجدتي تستلقي تحت دالية العنب والظل ما يزال يغطيها،،،،

ألقي بجسدي في أحضان جدتي ....تبتسم ..أغفو قليلاً ...ربما كثيراً ..لم يعد يهمني الوقت ..

عندما استيقظت وجدتني بعمر الأربعين وكنت قد نسيت كيف أبكي كما نسيت سكارة أم ابراهيم .

النسوان اتهاوشن:

ما بعد العصر بقليل ألقي بجسدي المنهك فوق فرشة من الإسفنج الرقيق فيما قالت أمي إنها ذاهبة لبيت جدتي ...

ما أن أغمضت عيني قليلاً والسهد يخيم فوق جفنيّ حتى بدأ الصوت يكسر فضاءات صمت الحارة، لم يكن صوتاً عادياً، لا شك أن هناك خطباً ما ...أسترق السمع أكثر وأستطيع تحديد ملامحه، هو صوت أنثى ، أشعر بالخجل وأختبيء خلف ستارة الشباك، أزيحها بيدي قليلاً و أتلصص على الشارع، هي جارتنا أمينة ترتدي دشداشاً معرّقاً لا أعرف لونه المميز، وحذاءاً بلاستيكياً وغطاء رأس معصوباً بشكل عشوائياً سمح لبعض الشعر أن ينكشف ...

وقفت فوق الرصيف لتطل على حوش بيت أم محسن المسور و الذي يقع تحت الشارع مباشرة ...

صوت أمينة يعلو أكثر ...... و أم محسن تخرج من بيتها وهي تعيد تهذيب يانسها الأخضر و تطل من خلف السور على أمينة ...

ما أن رأتها أمينة حتى اشتعلت غضباً ....عقدت حاجبيها أكثر وراحت تلوّح بكلتا يديها .

أمينة: يا مرة انتو ويش ليكوا عنا؟؟ هو إحنا ماكلين ورثتكو؟؟

يا مرة إحنا وين نشرد منكو وين انهج؟؟؟

أم محسن: يا مرة علامكي انطلقت علينا لويه بتشوحي في أيديكي ... شوي على حالكي ......خير ويش فيه؟؟!!

أمينة: بتسوي حالكي ما بتدري عن القرد اللي ليكي ...ابنكي محسن فاشخ العيل وفاتح راسه فتح

أم محسن: قرد اللي يرchبك إن شاء الله ...

يا مرة لويه ما تستحي على دمكي؟. اقلبي وجهك من هانا ...

تدير أم محسن بوجهها لتبحث عن وجه آخر تشكو له، تلمح وجه جارتنا فايزة فتوجه حديثها لها ...

شايفين هالمرة جايه اتchب بلاها علينا ...

لعنة الله عليكي وعلى اللي خلفوكي ...الحق مو عليكي، الحق على الجوز اللي لامك ....صحيح انكي ما بتستحي على وجهكي.

المسافة بين المرأتين لا تسمح بالاشتباك بالأيدي هي بعيدة ومناسبة لاتخاذ موقف محايد خاصة أن أم محسن تقف في داخل الحوش وأمينة تعتلي رصيف الشارع ..

سجال شديد اللهجة تطور ليصل إلى قذائف كلامية مبتذلة جداً ...

ما هي إلا دقائق حتى اجتمعت نسوة الحارة على الصوت ....ولا صوت يعلو فوق صوت أمينة وصوت أم محسن ...

أم ابراهيم القادمة من أسفل الشارع كانت تهمُّ في مشيتها وما أن وصلت حتى ارتفع صوتها وهي تلوّح بعصاها ...

أم ابراهيم بغضب: يا نسوان انتن ما بتستحن؟! الله يلعنكن ويلعن عقبكن معكن.

امشن اقلبن وجوهكن انضبن يا نسوان فضحتنا الله يوخذكن ..

تلوح بعصاها على مؤخرة أمينة التي تولي هاربة وتقذف أم محسن بحجر التي تلوذ إلى بيتها من جديد ...

يخيم الصمت على الحارة تدخل أم ابراهيم إلى حوش بيتنا تطرق الباب بعصاها ثم تفترش المقعد البلاستيكي وهي ما تزال ترطن غاضبة ..

أمد رأسي من طرف الباب أسلم عليها فتصفعني بسؤالها وهي تلوّح بعصاها في وجهي: يا عيل هو انت إلي بعثتك اتجيب لي سكارة الكمال من عند أم صالح؟؟؟

شيء من القشعريرة يدب في جسدي يخالطه الكثير من الارتباك، وأقرر أن أعيد إليها السؤال لعلي أنجو - ويش فيه يا حجة؟؟؟

ترد أم ابراهيم: النسوان اتهاوشن ..قليلات عقل

ثم أضافت: وين أمك يا عيل؟؟؟

مثل الذيب غادرت حوش البيت في طريقي إلى بيت جدتي .....لأخبرها أن أم ابراهيم في بيتنا

أمي وأنا:

صباحات العيد، أسير بملء قدّمي إلى بيت أمي، أطرق الباب ثلاثاً فيأتي صوتها دافئاً آمراً:

- فوت يلي ع الباب .

يقفز الطفل الذي يسكنني فلا أجيب، أطرق الباب مرةً أخرى ...يأتي صوتها ثانيةً:

- مين ع الباب .

أصمتُ ... أطرق الباب ثم أختبيء خلف السور .

تخرج أمي فلا تجد أحداً ....

أضحك كثيراً .... تماماً كالأيام الخوالي ...

ذات طفولة كنت في حضرة أمي

كانت تلف ورق اليخنة لتعد غداءنا، غادرتُ البيت وبعد قليل عدت لأطرق

الباب وأهرب. في كل مرة تخرج أمي وهي تنفض يديها مما علق بهما من حبات الأرز فلا تجد أحداً، تتمتم بكلمات وترطن ربما تشتم أيضا ....

في المرة الأخيرة أغلقت أمي الباب من الخارج واختبأت ......

عدت لأطرق الباب من جديد، انقضّت على جسدي الصغير، أسقطتني أرضاً، خلعت حذاءها البلاستيكي وانهالت عليّ ضرباً، صياحي ملأ فضاءات الحي، أخيراً استطعت أن أفلت من بين يديها ...أركض إلى باب الحوش، تقذفني بالحذاء فتصيب رأسي تماما، أسقط أرضا بعد أن اصطدم رأسي بطرف الباب،،،

الدم يسيل.. .

دم كثير ....أصرخ أكثر ويزداد الرعب في قلبي ...

أركض إلى أحضان أمي ....

خلف الجدار ... ما زلت أختبيء ... وقبل أن تعود أمي إلى الداخل ...

أقف في وجهها دفعة واحدة بعد أن أُخرس الطفل في داخلي ....

ابتسمت...

ضحكت ....ضحكت كثيراً ...

ذرف الطفل في داخلي دمعة ....

الدايه متيل:

الدرج الملتوي يقسم المداريس إلى نصفين، فلا تدري أيهما اعتدى على مساحة الآخر، الدرج أم المباني التي اصطفّت على جانبيه ؛ لتمنع الشمس من دخول المكان إلا في منتصف النهار على عجل، ومع ذلك تجد حميمية المكان طاغية على كل شيء هنا .

الدرج يصعد من الجدعة الوسطى، ويظل يتلوّى، يضيق، يتسع، يستقيم، ثم يعيد الكرة من جديد، يمر بمداريس حتى يصل إلى العيزرية .

على جانبي الدرج نوافذ مغلقة، وأخرى مفتوحة، أبواب مشرعة،أو ربما نصف مغلقة، ملابس ملونة عُلّقت على الحبال، بعضها ما يزال مبلولاً، قوارير بلاستيكية وحديدية سكنتها نباتات مختلفة تدلّت على الجدران لتزيد المكان جمالاً أكثر ...

بعض النباتات الصغيرة شقّت طريقها في شقوق الدرج، كالداية متيل.

لم يبق إلاّ القليل من الشعر الأسود بعد أن أشتعل الرأس شيباً، صليب صغير علّقته في عنقها وحقيبة يد صغيرة ارتدتها مع سوارها الفضي، ترتدي

فستاناً بنصف كم قصير، كاد يصل إلى ركبتيها و عروقها بدت ظاهرة تماماً .

جسدها النحيل لم يكن مرآة لشخصيتها القوية وذكائها الفطري ؛ فهي امرأة متعلمة وصاحبة مبدأ الحق يعلو ولا يعلو عليه ...

صباح اعتيادي من صباحات السلط تصعد الداية متيل الدرج قادمة من شارع الحمام، تلتقط علبة سجائر فارغة من الأرض وتمتم بكلمات وهي غاضبة، تبحث عن سلة مهملات فلا تجدها مما زاد غضبها أكثر ...تسب صاحب علبة السجائر الفارغة ثم تسب أهل الحي ..

شاب وسيم ممتلىء الجسد يقف في منتصف الدرج يدور بعينيه بين الأبواب والنوافذ والمباني .. تشتعل الداية متيل غضباً ..تقترب منه تضع يدها على خصرها تنحني قليلاً وتجحظه بعينيها ..

- يا ولد الله لا يجبرك ليش بتطلع على بيوت الجيران ...ايش بوجهك حيا؟؟

يلتفت الشاب إليها، يبتسم ويمد يده للسلام ..

- صباح الخير خالتي متيل أنا محمد ابن تريز .

تبتسم متيل وتتناسى موضوع التجسس على الجيران ...تستحضر ذاكرتها ... تريز التي أنجبت طفلين فلم يكتب لهما الحياة، نصحتها متيل أن تنذر للرحمن أن تسمي الطفل القادم محمد ...فعلت تريز وأصبح محمد رجلاً...

دفتر متيل لا يقل أهمية عن دفتر العمد وإن كان دفتر العمد يحوي على سجل ديون المطعم فإن دفتر متيل كان سجلاً للأنفس التي ولدت على يدي متيل، اسم الأم، اسم الطفل ، اسم الأب والعائلة.

السنون جعلت من متيل أماً للكثيرين من أبناء الوطن رغم أنها لم تتزوج ولم تنجب...

ذات ألم أشرقت شمس السلط دون أن تفتح متيل عينيها، ذرفت عين الفرخة والديكٍ و اهتزت عتبات بيوت السلطية ودرج المداريس ما زال يئن بصمت.. شارع الحمام عرف أن الوحشة محض يتم ...

دفنت متيل في قلوب أبنائها لتحيا بهم من جديد ....

شوربة أمي:

كسرب طير أغادر الحي صباحا مع أقراني إلى المدرسة الثانوية في المرج، كان علينا أن ننزل الجبل من (الخزق) ثم المرور بقبر معيطي عبر السفح الوعر للوصول إلى الشارع الرئيسي الذي يصلنا بالمدرسة، طريق العودة محمل بالتعب والجوع والإجهاد بعد يوم دراسي طويل، حقيبتي الثقيلة تشكّل عبئاً اعتيادياً لا يمكن تجاوزه وقبر معيطي حلم صعب المنال .

ما بين طريق إسفلتي يكاد يشتعل وسفح مرتفع عليّ أن أصعده ثم الدرج الطويل تأتي طلعة علي الحادة، هنا .. على قدّمي أن تجرّ جسدي وتلقيه في غيابة اللاوعي ..

رائحة البصل تداهمني عند عتبة البيت وحضور طاغي لشوربة العدس وأمي تشمّر عن ذراعيها لإعداد خبز الفتة.

قبل أن ألقي بحقيبتي أعلن احتجاجي الصارخ في وجه أمي ...

يمه ... بعدين مع هالعيشة ...؟ والله متت من الجوع كل يوم شوربة عدس؟؟!!!

- يا عيّل احمد ربك...... الناس ما هي لاقيه خبز توكله .

ثم أضافت:

- الشوربة بتبرد على قلبك ...! وفي الشتاء كانت تقول أن الشوربة بدّي في قلبك.

ما بين التبريد والتدفئة تقف أمي حائرة بصمتها مثل قلبي الصغير .

تتفنّن أمي بفقرنا وتزيّنه لنا بطريقة مقنعة تماما، فهي تحرص على أن تجمع بقايا الخبز لعدة أيام ثم تقليه بالزيت وتعده لتجهيز الفتة ثم تستخدم البدائل المتاحة لتخفيف التكلفة إلى الحدود الدنيا فشوربة العدس بوضعها الحالي لا تكفي لإطعام تسعة من الأفواه الجائعة بالإضافة لأمي وأبي أو ربما زائر على حين غفلة .

تخلط أمي الخبز المقلي بشوربة العدس وتحركه جيداً، وبدلاً من استخدام الليمون غالي الثمن فإنها تستعيض عنه بملح الليمون، والبصل الناشف عوضاً عن البصل الأخضر أما الزيت ؛ فتخصصه لوالدي أو لضيف كان يحضر مراسم أكل الفتة .

قبل كل ذلك ترسلني أمي مع قشانية شوربة وأعطيها لجارتنا أم حيدر ثم تعيدها أم حيدر ممتلئة بالكوسا المحشي بالرز وصلصلة البندورة .

ذات جوع ووجع جربت وصفة أمي السحرية مع أبنائي:

- يا عيّل الشوربة بتبرد على قلبك..

فاشتعل قلبي ألما ... لله درّك يا أمي كيف استطعت أن تحتملي كل هذا الألم؟؟!!

لماذا احتجت كل هذا العمر لأعرف أن شوربة أمي أطيب من قهوة أم محمود درويش؟؟!!!!

لماذا؟؟!

أم هدى الفلسطينية:

امرأة بحجم الجرح الممتد من النكبة حتى النكسة، جرح غائر في قلب فلسطين،

على وجهها تقاسيم سهول اللدّ وجبال الخليل ...وعلى وجنتيها تحمل ملامح الكرك بكل تفاصيلها .

أم هدى عاشت آلام النكبة، هاجرت مع من هاجروا من الرملة إلى حلحول، ثم تنفست النكسة لتجد نفسها في أحضان الكرك.

أم هدى امرأة ثمانينية لا يخلو وجهها من تجاعيد الزمن والوجع وإن خلا من الوشم

هي شقيقة لشهيدين وأم لابنة واحدة متزوجة وتسكن في الزرقاء .أما هي فقد سكنت في شارع الخضر وبالتحديد في حارة الشمايلة في بيت المرحوم صلاح أبو راتب، هي تذكر ذلك جيداً، أسئلة كثيرة طرحتها أمامي عن وجوه أحببناها يوما فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر كأم هدى .....

سنوات مضت على رحيلها من شارع الخضر إلى مؤتة، فهي تسكن الآن في بيت صديقي سليمان الذي قطع عهداً على نفسه أن لا يناديها إلا بـ يمه ، بيت صغير منحه لأم هدى تسكنه مدى الحياة، ولا يقوى على أن يتركها وحيدة تصارع وطأة الوحدة والانتظار.

في بيت أم هدى الكثير من الحكايات الموشّحة بالألم، ليس في ذاكرتها شيء من الفرح سوى ذكريات حديثة صنعتها مع نسوان شارع الخضر و مرافقة الحاجة أم مدالله وصديقي سليمان وأطفاله الذين لا ينادونها إلا بجدتي.

دلة القهوة وإبريق الشاي وديوان ممتلئ بحضور أم هدى والكثير من الألم كان في انتظاري ....

انا وسليمان ضحكنا ....ضحكنا كثيراً وكثيراً

على أمل أن نخفي دمعة ربما تليق بحزن أم هدى.

زينة نسوان الحارة:

جدتي ..

في حضرة جدتي على الأشياء هنا أن تتزين، ليس فقط ديوان أمي بل على اللغة أيضا أن تتبرج .

في حضرة جدتي تحرص النسوة على اختيار الكلمات بعناية فائقة فلكل شيء مقدار، ولجدتي حضورها الملفت للقلب، تتوسط ديوان أمي مقابل الباب الذي يسمح لها بمراقبة الداخلين والخارجين دون عناء، يحيط بها عدد من الوسائد من الطرفين، ونسوة الحارة افترشن الجنبيات الملقاة على أطراف الغرفة، ما تزال جدتي تلقي التحايا على النسوة وتوجه لكل واحدة منهن سؤالاً يدل على تفاصيل وهموم حياتهن اليومية ثم تلقي أوامرها على أمي لبذل مزيد من خدمات الضيافة، لا شك أن حديثها جعل المكان أكثر حميمية .

جدتي بمدرقتها المطرزة بالألوان الزاهية، ووجهها المشرق بابتسامته السرمدية ، الوشم الذي رسم الأصالة على محياها، خطوط الزمن التي

حفرت على وجهها سنين الشقاء، عصابة رأسها التي ارتدتها حداداً على ضياع الأندلس، كل ذلك وأكثر جعل هيبتها وكأنها غزلت من خيوط الشمس فرحا وألقتها على القلوب التي عذبتها سنيّ الشقاء، فما من بيت دخلته حتى سبقها الفرح إليه ...

جدتي تلعب أدوارها بمهارة فائقة، فهي إما أن تكون عمة أو خالة أو ابنة عم أو خال لمعظم نساء الحي، كيف لا و قلبها كبير يتسع لكل هموم حارتنا القديمة وفي المساءات تذرفها دمعاً في انتظار نجمة الصبح .....والنظر في عينيها محض سلام، كأنها تقول لا تقلقوا كل شيء سيمر بسلام ....

في ذلك اليوم لم يكن البكاء والعويل كافياً لمواسم الحزن، السماء أيضا أعلنت حدادها فقد ارتدت لونها الأسود على حين غفلة منذرة بقدوم جثمانها، كل شيء هنا كان يبكي بصمت مفرط .. زخات خفيفة من المطر هطلت ولا ندري إن كانت دموع السماء أم هي دموع أمي التي باتت تشعر بفائض في اليتم .

النملية:

تمسح أمي يديها من الماء بأطراف مدرقتها و تتبع خطاها إلى المطبخ، تقف أمام النملية وهي تحاول أن تتذكر الشيء الذي تريده، تنظر من خلف زجاج الظرفة اليمنى ثم اليسرى دون جدوى...

ما إن تنتهي من مسح يديها تفتح الظرفتين معا وتجوب بعينيها باحثة عن شيء لا تتذكره،

طبقتان خشبيتان مفروشتان بجرائد اصفرّ لونها وبقع سوداء هي زيت بلدي و ماء المخللات، مزيج من الروائح لا يطغى أحدها على الآخر، في الرف العلوي أواني ألمنيوم، طنجرتان احتوت إحداهما الأخرى، صينية شاي ملصقة في صدر النملية، قشانية كبيرة وأخرى صغيرة وإبريق شاي أصفر متوسط الحجم وكيس أسود تفوح منه رائحة الشيح والقيسوم والزعتر ومطربان سمنه بلدية.

ترد أمي باب النملية العلوي وتفتح الطابق السفلي على مصراعيه، سدر ألمنيوم كبير وصواني مسندة إلى ظهر النملية وسطل زيت بلدي ومطرة

زرقاء فيها زيتون مكبوس،كيس أسود في داخله مجموعة من الأكياس الأخرى ..

فجأة تنتبه أمي إلى وجودي بجانبها تجحظني بعينيها وتقذفني بغضبها

يا عيل أنت ويش بتسوي هانا إقلب وجهك لعنة الله عليك .والله ما حاس الدار غيرك .

- يمه انا ويش سويت ليكي .. علامكي ياه؟!

- يا عيل انقلع من وجهي

- يمه أنت ع ويش بدّوري؟

- وشاش يوش أذانك يا عيل اقلب وجهك

تبحث في أطراف المطبخ عن أي أداه تقذفني بها، تحت النملية تسقط يدها على حفاية بلاستيك، في تلك الأثناء كنت قد ابتعدت مسافة كافية لامتصاص القذيفة التي التصقت بظهري مباشرة ....

أغلقت أمي الباب لكنها حتما لم تغلق قلبها .

جنتكو جابت؟؟؟!!

باص الحي يبتلع الشارع الإسفلتي صعوداً، ببطء شديد، تستغل أم صالح وقوفه أمام حوش بيتنا وتمد رأسها من الشباك، وتقذف أمي التي كانت تفترش حوش الدار بسؤال مباغت دون سلام أو كلام: يا فاطمة جنتكو جابت يا فاطمة؟؟؟

- اللهم صل على سيدنا محمد الحمد لله جابت عيل

يتحرك الباص قبل أن تسمع الإجابة لسؤالها الثاني الذي أطلقته ويش صار عندها طنا جنتكو؟؟

في تلك الأثناء كان ركاب باص الحي قد علموا بالخبر .....

جدتي نجمة تناديني من باب بيتها وأنا أتجاهل صوتها تماماً ، أختبيء خلف سطل الزريعة وأسترق النظر إليها استعداداً للهرب من طلباتها ؛ فلا شك أنها سترسلني إلى مكان ما ...

قذيفة بلاستيكية تلتصق بظهري ثم تتبعها أمي بعدة شتائم ..

- يا عيل لعنة الله عليك لويه ما بترد على جدتك يا حمار اقلب وجهك وشوف جدتك ويشدها .

حالة الفزع جعلتني أقف أمام عينّي جدتي .

جدتي: يا محمود روح على أم عبدالله سلم عليها وقول ليها بتقول ليكي جدتي ودها إبريق الشاي الكبير .....

أمام غضب أمي أجدني أسابق الريح وأنا أرتدي البوت الصيني الذي اشتراه والدي مؤخراً ...

أطرق الباب عدة مرات ....تخرج أم عبدالله وتنتصب أمام الباب

- صباح الخير خالتي أم عبدالله ، بتسلم عليكي جدتي وبتقول ليكي: ودها ابريق الشاي الكبير .

- من انت يا عيل والله ما انا عارفيتك؟

- أنا محمود ابن فاطمة

- يه جنتكو جابت؟؟؟

- اه والله جابت عيل .

- مبروك إن شاء الله يا ريتو مبروك الحمد لله والله يحيى بستاهل

خليني أدور على الإبريق وانا بجيبه لجدتك هايني طالعة وراك ...روح مع السلامة

لم يمض وقت طويل حتى كان خالي يحيى قد أحضر زوجته من المستشفى بسيارته الداتسون الصفراء (y١٢٠) وأمي قد أعدت البيت جيداً رائحة القهوة والقرفة إعلان لمواسم الفرح ...

تصعد أم عبدالله الشارع وفي يدها إبريق الشاي الكبير وفي الأخرى مجمع ناشد وأم ماهر تكنس حوش بيتها بمكنسة القش.

أم عبدالله: صباح الخير يا أم ماهر شلونكي؟

- صباح النور يا هلا ويندكي على هالصبح؟

- مرت يحيى جابت عيل ما شاء الله ودي أروح اطل عليها وأعطي فاطمة إبريق الشاي .

- يا ريته مبروك إن شا الله هي أني ودي الحقكي بس أخلص شغل .

تستمر أم عبدالله بصعود الشارع وأم حسين تفترش الحجارة على باب حوش بيتها ...

أم عبدالله: صباح الخير يا حجة ما ودكي اتروحي على مرت يحيى؟

- يا هلا يا صباح النور .. والله ودي استنى ملعون ابو اهلها بلكي بيَّضت من هانا للظهر

ما عندي غير ٨ بيضات ودي اكملهن على ١٠ واخذهن للنفسا .

الصباحات في بيت جدتي مكتنزة بالفرح، تنشغل جدتي بتكليف خالي ببعض الأعمال الضرورية فيما تنشغل أمي باستقبال النسوة وإخفاء الطفل

عن عيون الحاسدين ...خرزة زرقاء ومصحف معدني صغير وحجاب قد أعدّته مسبقا كل ذلك علّقته في كفولية الطفل الذي أطلقوا عليه اسم (محمد) ...

أم عبد الله تدخل وفي يدها إبريق الشاي الكبير وطبق ناشد وأم حسين تدخل وفي يدها علبة سمنة كنز صغيرة وفي داخلها ١٠ بيضات

أم إبراهيم قالت أن أم صالح أعلمتها بالخبر تقدمت من الطفل وتمتمت بأشياء فوق رأسه ووضعت تحت وسادته ورقة فاين ملفوفه قالت جدتي فيما بعد أن بداخلها (نيرتين .

خالي يحيى كان قد أحضر أنواعاً مختلفة من الدخان ولكنه نسي أن يحضر علبة كمال مما جعل أم ابراهيم تحتج بشدة بعد أن اكتشفت أن السيجارة التي دخنتها هي سيجارة لولو ...

جدتي أرسلت خالي مرة أخرى لإحضار علبة كمال وطلبت منه أن لا يتأخر

أم صالح تقود وفداً من نسوة الحارة الفوقا فيما كانت أم ماجد قد حضرت من أسفل الحي برفقة الحجة رشده وأم محمد وأم زيد القرالة وأم مبارك وأم بسام وفايزة مرت ذيب

أمي أعدت طبقا من البيض والحليب لchنتنا فوزية مرت يحيى فيما أوصت أم صالح أن التمر والبيض ضروري جداً من أجل صحة النفسا ويساعدها على إدرار الحليب للطفل .

بيت جدتي الصغير وإن لم يتسع لفرحة نسوان حارتنا إلا أنه كان يتسع لكل نسوة الحي حباً وفرحاً..

ظلت جدتي تحلم في أن ترى محمد عريساً ... هكذا كانت تقول كلما هدهدته وربتت على ظهره ...

توفيت جدتي وما زال محمد صغيراً.

تزوج محمد ولم يسم ابنته الأولى نجمة ولا فاطمة و لا حتى فوزية ولكنه عاد ليسمي ابنه الأول يحيى على أمل أن يسعد ذلك قلب جدتي في قبرها ....

وأمي ما زالت تنتظر مناسبة كي تستعير إبريق الشاي الكبير من أم عبدالله

وبعض الدمع يرفض أن يجف.

الحداد:

يمتطي التلفاز (توشيبا) ،طاولة خشبية صغيرة، في مقدمتها درج صغير تستخدمه أمي لحفظ الإبر والخيوط مختلفة الألوان وأشياء أخرى، أسدلت أمي ستارة التلفاز منذ زمن لم أعد أذكره، هي قطعة قماش من الساتان الأزرق تلف جسمه تماماً، فيما اعتلى التلفاز مزهرية مزركشة ومغبرة وضعت فاطمة فيها بعض الزهور البلاستيكية .

تستند الطاولة الخشبية وما عليها إلى الحائط في زاوية الغرفة الكبيرة، في جانبها جهاز هاتف مرقم باللغة الإنجليزية، كانت أمي تنهرني كلما حاولت أن أختبر حفظي للأرقام بإدارة القرص بإصبعي الصغير ...

ما بعد العصر بكثير وربما قبل الغروب بقليل، في الحقيقة لم أكن مهتماً للوقت، أدخل البيت وأنا أحمل الكثير من التعب والملل، أشعر أنني بحاجة إلى شيء ما ولكن يصعب تحديده، أستغل عدم وجود أمي وأفتح النملية، لا شيء أريده، لا لست عطشاناً ... لست جائعاً ... غريب هو أمري أحتاج إلى شيء لا أعرفه!.

أرفع ستارة التلفاز الزرقاء، الكثير من الغبار يغطي الشاشة، أرفع الهوائي بعد أن أتأكد من خروجه من الثقب المخصص له في الستارة، الحمد لله أستطيع أن أمسك بالمزهرية قبل أن تتكسر فقد سقطت بفعل يدي .. أفتح التلفاز أحرك الهوائي لليسار واليمين، أدور بمفتاح التلفاز على عدة أرقام، لم أكن أبحث عن شيء محدد كل ما كان يعنيني أن أجد شيء يمكن أن يكسر وحدتي ...

أستلقي على ظهري، لحظات حتى أستسلم للنوم ... نوم عميق لم أعد أشعر بشيء ...

حفاية بلاستيكية تصطدم برأسي هذه المرة كانت مؤلمة .. مؤلمة حقاً، أُصاب بالفزع أبحث عنّي فلا أجدني ..

صوت أمي يسحبني إلى وجهها، أستعيد نفسي وأبتسم فرحاً،،، أنظر إلى وجهها الغاضب وأستمع إلى شدوها:

- يا عيل انته ما بتفهم لعنة الله عليك فضحتنا بين الناس اشتيان ما صار إله ثلاث شهور ميت وانت فاتح التلفزيون؟؟!! والله لو أبوك بدري عنك غير يذبحك ذبح،،،

تستمر أمي بالشتم وهي تغلق التلفاز وتعيد تكفينة بالستارة الزرقاء من جديد ...

أصبح الحج اشتيان ذكرى و تلفاز أمي لم يعد يفهم وجهي ...قلبي أصبح كالصالة العامة،،، في الأمس بكيت صديقاً واليوم أفرح لآخر ....

مسكين هو قلبي كيف له أن يحتمل كل ذلك ....

أمي ما زالت تذرف دمعة على من أحببناهم يوما وغيبهم الموت قسراً ...

الحجة ختمة ..

صباح اعتيادي ليس فيه شيء استثنائي سوى خروج الحجة ختمة بكامل أناقتها، المدرقة المخملية المطرزة، وعصابة رأسها حين اتخذت الشارع سبيلاً لها، حتماً ستمشي قليلا ثم تنتظر خلفها كلما سمعت صوت سيارة على أمل أن تجد من يقلها بسيارته إلى المدينة ..

الوقت ما زال باكراً، كالعادة جدي أبو علي يفترش كرسي حديدي صغير مشبك بخيوط بلاستيكية مختلفة الألوان ويضع سيجارة رخيصة بين شفتيه وكأن وظيفته رد السلام على المارة ومراقبة الخارجين أو الداخلين إلى الحي، أمي تمسك بربيش الماء بيدها وتسقي التنك الصديء ومن ثم ترش الشارع بالماء،أم حسين ترش بعض القمح لدجاجاتها فيما كانت أم ماهر تكنس باب بيتها بمكنسة القش ..

وأم سميح تجلس على عتبة البيت لا تنتظر أحداً.

تلقي الحاجة ختمة الكثير من السلام على جدي الذي يجيبها بفتور ....

ثم تعيد الكرة مع أمي التي تستقبلها بترحاب ....

أمي: يا هلا صباح النور اتفضلي اشربي قهوة

- ريته عامر والله ودي المدينة ومستعجلة .

- خير ويش فيه؟؟؟

- ودي أروح على الصحية والله ما نمت امبارح من وجع رجلي

- سلامتكي والله ما عليكي شر .. استني هانا بلكي أجا ابن حلال وركبتي معه .

- هي اني بقسدر على مهلي ..

- عاليوم اتقولي للدكتور بلكي اعطاكي كبسولات أحمر و أبيض والله خلصن من عندي .... إمبارح أعطيت أم صالح تالي حبيتين .

- إن شاء الله ...إن شاء الله ...

تتخذ الحجة ختمة طريقها بكثير من الزهو ...الحجة ندى أم فتحي تجلس مع أم عبدالله وهي تلوح بكلتا يديها يبدو أنَ الموضوع ساخن،هكذا اعتقدت الحجة ختمة خاصة أنها لم تستطع أن تفهم لغة الجسد التي كانت ترافق همهمات أم فتحي وأم عبدالله ...

في الوقت الذي اقتربت فيه الحجة ختمة كانت أمينة قد سبقتها، أم عبدالله وجهت سؤالها للحجة ختمة قبل أن تطرق السلام ...

- وين ادكي على هالصبح يا حجة ..

- والله ودي الصحية، وقفت عند أم ناصر شوية والله ما لحقني ولا سيارة

- سلامتكي إن شاء الله خير ويش فيه علامكي يا غبصى؟

- ويش ودي أسوي الحمد لله والله ما نمت من وجع اجري طول الليل وأنا بتقلب .

امينة: عليوم انكي اتجيبي لي حبوب الضغط والله ما ضل عندي غير خمس حبات، والزلمة ما ضل عنده حبوب السكري وصينا العيل يجيب لينا من المستشفى العسكري وبقول ما لقيت عندهم ... يا خيتي بلكي جبتيهن لي من الصحية معاك .

- ويش عليه إن شاء الله خير ..

أم فتحي: واني والله ودي كبسولات زهر وابيض تبعات الاستلهابات ...ابن سميح أجا وأخذهن كلهن والله الواحد بحتاجهن ..

تتخذ الحجة ختمة الشارع الطويل وهي تعيد النظر للخلف كلما سمعت صوت سيارة .... يشتد الأوار وأحد ما لم يقلها بسيارته ..

نسوة الحارة في انتظار الغروب كي يغادرن حوش أمي .....والحجة ختمة لم تظهر بعد ....

نظارة الحج نافع وسماعة أذن الحجة ختمة:

المسجد الصغير يتوسط الحي، تمتد البسطة الشرقية التي ارتفعت عن الشارع مسافة مساوية تماماً للمسجد، في حقيقة الأمر هي الطريق الوحيد المؤدي إلى الباب الحديدي الصغير ومن ثم استخدامها ديواناً للرجال كلما انتهوا من صلاة العصر فيما تشكل أطباق البيض الكرتونية التي حزمت بخيط نايلون طبّات (هكذا كان يسميها الحج خلف بن حسين) مقاعد جاهزة بالإضافة لحصيرة الجامع .

ما قبل المسجد بقليل يقبع الدكان الصغير على أطراف الشارع، وبسطة الدكان أصغر بكثير من بسطة الجامع إلا أنها تشكل جزءاً خدماتياً لدكان الحجة ختمة فيما لو جاء أحدهم ليشرب البيبسي ويجلس على طبات كراتين البيض أو يجلس على المقعد الأسمنتي الذي يفترض أنه الحد الفاصل لبسطة الدكان والبسطة هنا. لا تهدأ أبداً

الحجة (امخيله) تجلس بصمت والحجة ختمة افترشت سريرها في قلب الدكان وغطت في نوم عميق.

على الطرف المقابل للدكان، الحج نافع بنظره الضعيف عبثاً يحاول أن يقرأ وجوه المارين من هنا أو حتى يتعرف على ملامحهم دون جدوى، يطعم حماره المتعب الذي استلمه من جمعة المصري عامل النظافة بعد أن ربطه بالعامود الخشبي، في حيينا . الحمار أيضا يعمل في البلدية مقابل راتب شهري .

يا ...حجة ... يا حجة ..: الحج نافع ينادي زوجته

يرتفع صوته أكثر: يا حجة ختمة .... يا ختمة ....ختمة

تلتفت الحجة امخيلة وهي تعرف أنه ينادي على زوجته النائمة، في الوقت ذاته كان الحج نافع ينظر إلى الحجة مخيلة معتقداً أنها زوجته ختمة وهو يشكو إليها: ملعون الوالدين ذابح الحمار محمل عليه حديد وحافره بشر دم .

ثم يسألها عن ابنه سليم فيما إذا كان قد وصل أم لا .

تقاطعه الحجة مخيلة عدة مرات بصوتها الضعيف دون جدوى، وعندما يقترب أكثر يعرف أنه كان مخطئاً، يلقي الكثير من السلام عليها ثم يعيد شكواه من جديد .

يدخل الدكان ويبدأ بالسب: ...(صار إلي ساعة بنادي عليك ياه .. لويه ما بتردي .... نايمة ملعونة الوالدين أن شاء الله ما بتقومي .

كانت الحجة ختمة قد افترشت سريرها الحديدي وتوسدت يدها بعد أن غرزت كوعها على أطراف السرير

لم تسمع هذرمات الحج نافع فقد خلعت سماعة الأذن قبل نومها ...مما دفعه إلى هزها بيده قليلا حتى استيقظت.

تفتح عينيها ثم تستند، تضبط عصابة رأسها لتخفي ما تسرّب من الشيب، تبحث عن سماعة أذنها فلا تجدها ....

الحج نافع يسألها: سليم روّح من الدوام .؟؟؟

الحجة ختمة: والله ما أنا عارفة وين حطّيتها يقطع ظلمتها ...

الحج نافع يرفع صوته أكثر وهو يلوح بيديه: يا مرة بقول ليكي سليم سليم روح من الدوام؟

الحجة ختمة تتابع حركة يديه لعلها تفهم ....ثم تختار لها إجابة لعلها تقنعه أنها ما زالت في غنى عن سماعة الأذن .

الحجة ختمة: المصري جاب الحمار وربطه في محله هيوه عند العامود .

الحج نافع ينفجر صارخا: ملعون أبو معيطي في قبره يا مره وين رحت في الماخوذة ملعون أبو أهلها؟.

يبدأ في البحث عن سماعة الأذن فتسأله متهكمة: عويه بدور يا نافع هو أنت بتشوف؟ !

الصراخ لم يجدِ نفعاً في غياب سماعة الأذن

يغادر الحج نافع الدكان في طريقة إلى بيت أمي وهو ينادي: يا فاطمة يا فاطمة هيه يا فاطمة في تلك الأثناء كانت أمي تعد حوش الدار لديوان ما بعد العصر

الحجة مخيلة قالت وهي تحاول الوقوف على قدميها أن سليم دخل إلى بيته قبل قليل ......لكن الحج نافع كان قد غادر المكان ..

نظارة الحج نافع، باكورته سماعة الحاجة ختمة، الدكان، الجامع، الحج خلف، الحجة مخيلة الشارع وأشياء أخرى ذاكرة تعصف بنا ألما ....

دمعة أمي بركان يشتعل في صدري كلما ذكرت خالها نافع .

ضربة عين:

كالعادة تنشغل أمي في سقاية الزريعة التي اتخذت تنك الحديد بيوتاً لها وسورت حوش الدار،

أمي حريصة على أن لا يصيب الماء أحد المارين من هنا، فيما تجلس جارتنا أم عبدالله وهي تحمل بين ذراعيها حفيدها ابن ابنتها الذي لم يتجاوز العام من عمره، فقد ذهبت أمه للعمل وتركته في حضانة جدته .

تنضم خديجة إلى حوش البيت تلقي تحية الصباح وتجلس في جوار أم عبدالله بعيداً عن الماء ... تبدأ بمداعبة الصغير بيدها ثم تلقي كلمات طفولية قالتها، وأم عبدالله تجاهلتها تماما.......

خديجة وهي تبتسم: العيل مطلّع سن من تحت يا الله ما أحلاه

أم عبدالله تجحظها بعينيها: يا مره لويه ما اتصلي على النبي؟ علامكي علينا ياه؟.

وتبدأ بقراءة المعوذات على رأس الطفل بعد أن جعلت خديجة بظهرها وأخفت الطفل عنها .

تحاول خديجة أن تعتذر وتزيد الصلاة على النبي وهي تقول بعد أن فتجلت عينيها:يا مره كودنكي بتفكريني بضرب بالعين؟ لا يا خيتي ....ما شاء الله عالعيل وأهله ...

علامكي يا مرة علي أنا ويش سويت ليكي؟؟؟

تغادر خديجة حوش أمي غاضبة وتبدأ أم عبدالله بتحسس حرارة الطفل وهي تخاطب أمي:

شايفة يا أم ناصر ملعونة الوالدين عينها بتفقّش الصخر.العيل حرارته مثل النار .

تقترب أمي من الطفل وتتحسس حرارته ولا تشعر بشيء تحمله بين ذراعيها تداعبه والطفل يبتسم .

أمي: ما شاء الله اللهم صل عليك يا محمد والله ما عنده خلاف العيل ...بس أنت هدي على حالكي شوي .

ثم تضيف ساخرة: العيل بطلّع أسنان يومنّه يطلع عليه حرارة ما بسايل شو يعني ودكي يطلع عليه شعر يعني...

تضحك أم عبدالله و تبتسم أمي ثم تبدأ بقشط الماء الذي ملأ الحوش وهي تستعد لاستقبال بقية نسوان الحارة .... ضمن احتفالية صباحات حارتنا.

شعبة البريد:

صباح اعتيادي ليس فيه شيء مختلف سوى خلو بيت صلاح ابن اشتيان من أهله فأولاده وبناته في المدرسة وزوجته أم مصلح ذهبت لزيارة شقيقتها كاملة في القطرانة.

لذلك كان عليه أن يبقى بجوار الهاتف لتلقي الاتصالات ومناداة أصحابها، وأن لم يفعل ذلك ستقوم مؤسسة المواصلات بنقل شعبة البريد من بيته إلى بيت محمد دخل الله الذي كان يطمع في ذلك.

يخلو الشارع من المارة بعد أن تجاوز الصباح ساعته التاسعة، ويبقى كذلك حتى موعد انتهاء المدرسة، لم يكن صلاح يتوقع أي مكالمة فقد مرت عليه أيام وربما أسابيع لم ينطق فيها الهاتف بكلمة واحدة، ومع ذلك كان يجب عليه أن يقوم بعمله على أكمل وجه، لم يمنعه ذلك من غفوة طالما أن الهاتف سيوقظه حتماً

يلقي صلاح بجسده فوق جنبية الإسفنج الرقيقة و يعقد يديه تحت رأسه ليرفع مستوى الوسادة البالية ثم يضع قدماً على قدم، ينسحب منديله

وعقاله فوق وجهه مخفياً عينيه، تتوقف حركة قدمه التي كان يلوّح بها، يبدو أنه غط في نوم عميق

يلتصق هاتف أسود بقرص مرقّم بخط فاخر باللغة الإنجليزية بالحائط ، وإن كان لا يعرف الأرقام إلا أنه أصبح بارعاً في استخدامها كان جدي يقول ذلك بعد أن شاهده يدور بالقرص ليتصل بإحدى معسكرات الجيش في المفرق.

الساعة التاسعة والنصف صباحاً، ينعقد ديوان أمي ونصف الحضور لم يصل بعد، الهاتف يرن يقفز صلاح من حلمه وينتصب أمام الهاتف ليقطع أنفاس الرنين:

يجيب بصوت عالٍ وهو يعدل منديله فوق رأسه بيد ويحمل سماعة الهاتف باليد الأخرى: ألووو ألووووووو ألوووو .

صوت:الوووووووووووو الوووووو

صلاح:الوو أنا سامعك يا رجل . أنت سامعني .

صوت: الوو آه سامعك الو الو

صلاح: ألووو ويشدك؟

صوت: كيف حالك يا خالوه؟ أنا يحيى ابن الحجة نجمة بحكي معك من عمان .

صلاح: آه هلا هلا ودك أمك؟

يحيى: آه يا خالوه نادي أمي يمكن اتلاقيها عند دار الحج أحمد

يعلق صلاح سماعة الهاتف على مسمار مغروز بالحائط وينطلق بسرعة كبيرة وهو يعيد ترتيب هندامه ويصلح عقاله، ينزل الشارع ويلقي السلام على الحج نافع الذي كان يقف أمام الدكان فيبادره السؤال: نافع؟:خير يا صلاح لوية بتركض يا زلمة؟ ويش فيه؟

يضع صلاح يده على رأسه ليحكم إمساك عقاله ويدور برأسه إلى الحج نافع وهو ما زال يركض ..

صلاح: خير يا حج: هاظا يحيى ابن أختك على التلفون بحكي من عمال (يقصد عمان) وده أمه .

الحج نافع يترك دكانه ويسبق صلاح إلى شعبة البريد وفي طريقه أخبر شقيقه محمد دخل الله بتلفون يحيى ابن نجمة الذي رافقه أيضا إلى بيت صلاح .

يطرق صلاح بيت أمي، وهو ينادي يا أم ناصر يا أم ناصر

أمي: فوت جاي يا خالوه

ودون أن يلقي التحية يسأل أمي:

الحجة نجمه عندكي: هاظا يحيى على التلفون بحكي من عمال وده أمه .

تختار أمي زوجين مختلفين من الأحذية وترتديه أثناء ذلك كانت تخبر نسوان الحارة بما سمعت من صلاح تعتذر من النسوة عن غيابها قليلاً، تنادي بصوتها على جدتي التي خرجت حافية القدمين تركض باتجاه الهاتف، تلحقها أمي وفي يدها حذاءاً آخر اختارته دون عناية بلونين مختلفين هو بالضرورة لإحدى النسوة

تلحق بعض النسوة بأمي وبجدتي إلى بيت صلاح في حين كان الحج نافع وشقيقه ومحمد دخل الله في انتظار جدتي في بيت صلاح .

عادت أمي إلى ديوانها وراحت تقص للنسوة تفاصيل مكالمة شقيقها يحيى لساعات طويلة، و ملف يحيى كان هو الأبرز على جدول أعمال النسوة لعدة أيام .

صلاح كان قد أعد إبريق الشاي للحج نافع ومحمد دخل الله وبعض الرجال والنسوة الذين بقوا في الحوش أمام الهاتف

انتشر الخبر ومفاده أن يحيى ابن نجمة اتصل بأمه من عمال.

يا ولد دربك على عمان

يا مسكن الشوق وأحبابي ...

هكذا غنت أمي فيما كانت جدتي تغني:

يا ربي يا جايب الغياب واتجيب للدار راعيها

واتجيب يحيى كحيل العين يا جروح قلبي يداويها

كانت أمي تعلم أن الأماكن أيضا تغادر مع ساكنيها، عاد يحيى ليشيع جثمان أمه وجثامين كل الذين أحببناهم يوما ...

إلى روح جدتي وأشقائها الذين لحقوها تباعا

ربما كان موتهم ليعلموا يحيى معنى اليتم ...كل يوم ألف مرة ...

الحوش:

لم يكن ديوان أمي يحتاج إلى مناسبة كي يمتليء بالنسوة، ولكن هذه المرة الحوش لم يتسع لحضورهن الذي ملأ الصباحات بهجة وسروراً ...

أم ماجد زوجة محمد معيطي وأم زيد زوجة الحاج سليم لم يكن خروجهن بالأمر الاعتيادي ولم يعتدن زيارة ديوان أمي إلا في المناسبات بحكم المسافة فالحارة التحتا بعيدة بعض الشيء، أم محمد الحجة خشفة استغلت الأمر ورافقتهن إلى ديوان أمي، المسافة بين الشمس ومخدعها ما زالت قريبة والشوارع تخلو من المارة ، أصوات مبعثرة هنا وهناك، صوت ديك نسيَ موعد صلاته، صوت سيارة قادم من بعيد، وقريباً من بيت جدي هديل الحمام ينتشر في فضاءات المكان .

النسوة يصعدن الشارع، وأم فتحي تجلس على مقعد حبال حديدي صغير، ألقت بسيجارتها ثم داستها بحذائها فيما كانت أمها الحاجة لبيبة تفترش الأرض وتنكش التراب تحت قدميها بعود صغير.....

صباح الخير، شلونكي يا أم فتحي كيف حالك وشلون عويلك وشلونكي يا حجة لبيبة كيف حالك؟

تحية حميمة بالجملة أطلقتها النسوة تشابهت في كلماتها ونواياها ردتها أم فتحي وأمها دفعة واحدة وزادت عليها:

وين ادكن ع هالصبح خير إن شالله؟.

أم ماجد: خير إن شاء الله، والله ودنا انروح عند أم صادر زمان ما شفناها يالله كان ودك اترافقينا.

أم ماجد تحمل في يدها مسبحة طويلة حملتها بكلتا يديها ابتسامة خفيفة أقسمت أن لا تفارقها فلا تدري إن كانت للضحك أم للبكاء، ترتدي مدرقة مخملية مطرزة من أسفلها على الحدود السفلى .. ثم يتكرر الرسم على صدرها ليأخذ شكل مربع في داخله ضلعين شكلا مثلثاً.

نسوان حارتنا متشابهات حتى في قلوبهن ...

تلتحق أم فتحي بالركب وتعيد السلام مرة أخرى، أم ماهر تكنس باب بيتها بمكنسة القش وأم حسين تطعم دجاجاتها، يتكرر المشهد، أم ماهر قالت أنها تنتظر شيئا وأم حسين ألقت كل ما في جعبتها للدجاج وسارت مع النسوة ..

في حوش الدار، رائحة القهوة، أصوات النسوة، الكثير من الأحذية الملونة هذه المرة الحوش لم يتسع للعدد فكان على أمي أن تنقل الديوان إلى الغرفة الكبيرة فهي معدة لذلك جيداً ...

تمتلىء الغرفة بالنسوة وأمي لم تحتر في القادمين فقد قالت جدتي أن المحل الضيق يسع لمئة محب، وهكذا كان الأمر حدث ذلك حتى أن أم ماجد وأم زيد جلسن في صدر الديوان ...

أمي كانت توزع الشراشف الخفيفة وتلقي بها على سيقان النسوة ...

العزاء:

صوت أم صالح يتسلل من خلف الباب

- فاطمة ....هيه يا فاطمة . يا فاطمة

أمي تقفز من مكانها وتركض باتجاه الباب

هلا يا أم صالح فوتي جاي

- سلام عليك شلونك يا أم ناصر

ما ودك اطيحي على الشهابية؟؟؟

أمي: يا خيتي لوية ع الشهابية ويش فيه؟؟

أم صالح: يا غبصانة كيف ويش فيه؟؟؟!! ما ودكي اتعزي على الحجة مريم وبناتها؟

أمي بتهكم وسخرية: يا خيتي هو العزا كل يوم؟؟؟ ما احنا امبارح عزينا

والله شكلك طايحة ادوري سواليف ... بلعون شغلتك مي شغلة عزا

فوتي جاي واسكتي أحسن ليكي هسا نسوان الحارة بجن هانا وبتسولفي ع كيفكي.

تبتسم أم صالح وتشعل سيجارة كمال بعد أن تفترش المقعد الوحيد في الحوش في انتظار نسوة الحارة

تبدأ أمي بسقاية الزريعة التي تسكن التنك الصديء وأم صالح تتنفس الصعداء

إبريق الشاي الكبير:

في حارتنا ليس بالضرورة أنت تقتني كل الأشياء، فثمة قلوب تشاركك فرحك وحزنك بنفس المقاساة ، لم تكن أمي بحاجة لفقد كي تبكي دموع الفرح أيضا كان قلبها يستحضرها بمهارة .

أنا: صباح الخير يا خالة

أم عبدالله: هلا يا ابني صباح النور

أنا: خالة بتسلم عليكي أمي وبتقول ليكي ودها إبريق الشاي الكبير ودها اتسوي فيه قرفة

أم عبدالله: يا ريته مبروك إن شاء الله نصيتو لمحمد؟؟؟

أنا: إن شاء الله بكرة ودنا انّص .

أم عبدالله: يا غبران إبريق الشاي الكبير ما بدري عنه وين صار، خفت انّه عند أم فتحي من يوم جيزة بنتها وهو عندها .

اخس يا عيل روح عليها وقول ليها بتسلم عليكي أم عبد الله .. وقول ليها أم عبدالله ودها إبريق الشاي الكبير تبعها ودها تعطيه لفاطمة .... اركض مثل الذيب .

صباح الخير خالتي أم فتحي

هلا يا ابني:

بتسلم عليكي أم عبدالله وبتقول ليكي ودها إبريق الشاي الكبير .

أم فتحي: منيه أم عبدالله يا عيل؟؟

أنا: رحمة مرت مسلم .

أم فتحي: يا غبصانة يارحمة ... يبوس عليك يا ندى (هي ذاتها أم فتحي) كود إني شحدته لفضة مرت عبد المجيد في الحارة الفوقا، خاف الله أخذته يوم جوزت ابنها زياد.

اسمع يا عيل: روح خذه من عندها وإذا ما لقيته دوره عند الحجة فضية أو عند أم حيدر والله ما أنا داريه وين صار؟؟؟ الله يقطع برقان الشاي

المهم بعد ثلاث سنوات وجد إبريق الشاي الكبير في الحي المجاور عند عايشة زوجة إبراهيم الطويل ..

تعرفت عليه أم عبدالله من الدهان الأحمر على مقبض الإبريق .

يا فاطمة دمليه:

هي الحصبة اللعينة تداهمني، أمي فاطمة ستتعامل معها بخبرة نسوان الحارة، الأوار يزيد الأرض اشتعالاً كجسدي ....

تفرش أمي حوش البيت بجنبيات الإسفنج والمراكي استعداداً لاستقبال نسوان الحارة، تحملني بين ذراعيها وتلقيني في الزاوية البعيدة من الحوش، تغطيني بلحاف ثقيل وتحته حرام أحضره والدي معه أثناء أدائه للعمرة ...

لحظات وتحضر أم عبدالله وفي يدها (علبة سمنة كنز وفي داخلها بيض بلدي) قالت لأم حسين أنها طلة لمحمود ابن فاطمة .

الحوش يمتليء بنسوة الحارة، تدخل أم ابراهيم وفي يدها كيس أسود قالت أنها أعشاب مفيدة تناوله لأمي وهي تسأل: وشلون ابنكي إن شاء الله اتحسن؟

أمي: الحمد لله

أم إبراهيم: يا شينه دملية وخليه يعرق .

تتفقد أمي كتل الغطاء التي حشرتني بداخلها ثم تربت على ظهري وتتأكد من خلوها من منافذ الهواء.

أم صالح: يا خيتي هي هالمصيوبة علامها على هالصبح بطشش؟ يا غبرانه عمن مطلقة لسانها الزفر؟؟

أمي: ويشدكي فيها؟ يمكن على عيالها؟ فكينا منها لا تتطلق علينا .

أم صالح: والله شكلها بتشتم على آدمي كبير

كودنها بتشتم على حسن؟

أمي: والله حسن مو داري عنها هالمصيوبة .. هاذي عادتها طول انهارها وهي هيه . جيزان من القلة .

أم صالح: الله يوخذها بس ..خلي هالحارة ترتاح منها .

أمي بغضب: يا خيتي بعيد الشر عنها، الله يخليها لعيالها ويطول عمرها ... يا غبصا اسكتي .

تصهل أم صالح بضحكتها: يا بياه لو أنها تتطلق عليك وعلى عمكي حسن خليني اشوف ويش ودكي اتسوي .

في تلك الأثناء كانت زوجة جدي تمر بالأرجاء وما أن شاهدتها أم صالح حتى شعرت بالخوف فبادرت أمي بالسؤال عن صحة والدي وعن أخبار العائلة ثم ألحقتها سؤالا عن سبب وفاة جدتي ....

كل شيء في الشارع يلوذ بالصمت في انتظار صوت باص حي الثلاجة ربما سيبتلع أم صالح ويلقيها في وسط شارع الخضر.

سواليف:

ويحدث أن تجتمع بعض النسوة على عتبة حوش أمي في انتظار باص الحي، و القهوة تمتد إلى أطراف الشارع، تفترش أم صالح الرصيف وتنادي أمي بصوتها الرخيم

دست ايدها في جيبها وأخرجت باكيت الريم ثم راحت تبحث عن علبة أعواد الثقاب التي لم تجدها .. × يا أم ناصر ....ها يا أم ناصر هاتي معاكي كبريتة ودي أدخن سكارة مع فنجان القهوة

ثم راحت تحدث نفسها بصوت مسموع

هالعيل ملعون الوالدين أخذ الكبريتة ما رجعها ... يلعن أبو أمه...

وهي تقصد بذلك ابن ولدها صالح.

تسمعها أمي، تناولها علبة الكبريت ثم توجه سؤالها الاستفزازي وهي تعلم أن أم صالح ستبوح بكل شيء.

أم اسماعيل تنادي على أمي: يا فاطمة ها يا أم ناصر يا أم ناصر ...

أم صالح تسند ظهرها إلى الحائط ثم تطرح سؤالاً جديداً على الحجة آمنه التي تجلس على يسارها ويبدو أنها كانت تغط في نوم عميق

خالتي رفعة:

هي خالة أمي وقد تعودنا أن نناديها بـ (خالتي) في الحقيقة لم يكن للعادة شأن في ذلك فقد كانت حنونة كـ جدتي....

أم أحمد القيسية التي ما زلت أجهل اسمها تغادر دكان الحجة ختمة وفي يدها كيس أسود، تصل إلى باب بيتنا، أمي تجلس في الحوش تنشغل بترقيع بنطال شقيقي بقطع من القماش ربما تقترب من لونه الأصلي ....

أم أحمد دون أن تلقي السلام تضع يدها على حنكها متسائلة: يا فاطمة هيه الحجة رفعة ودها ترجع على الحارة؟

تجيبها أمي بفرح كبير: إن شاء الله بعد شوي بتصل و هيني بستنا فيها .

أم أحمد القيسية: يا غبصه لويه ترجع ليما اتظلها عند عيالها في الزرقا أحسن ليها .؟

أمي تجيب بتهكم وغضب: لويه يا خيتي أحسن ليها، ما هي بناتها وخواتها وإخوانها في الحارة وعيالها سيارتهم معهم بيجو وبطلوا عليها .

الحجة فضية:

يتواطأ معها البيت الذي تسكنه فيمنحها شرفة على الشارع تتيح لها مراقبة المارة دون عناء، اتجاه البيت إلى الشرق، ميزة إضافية تجعل الحوش يمتلىء بالظل منذ ساعات النهار الأولى.

بوجهها الأبيض المشرق المخطط بالوشم الأخضر، أشكال هندسية وخطوط متقاطعة ربما كانت تعني لها الكثير، ترتدي مدرقة سوداء مطرزة بالألوان الزاهية فوقها جبة خضراء، ثمانون عاما ويزيد كأنها نسيت أن تمرّ فوق وجهها فلم تترك أثرا ولكنها طبعت الحكمة والرزانة على محياها و مما يزيد وقارها تلك العصابة السوداء التي استقرت فوق رأسها كتاج ملكي ... تفترش الحاجة فضية مقعدها على حافة الحوش وأمامها سخان القهوة بفنجانين مطرزين بالوشم كوجهها.

الشمس ما قبل كبد السماء، إعلان افتتاح الديوان في حوشها، لحظات حتى تحضر سلفتها عصرية أم محمد وفي يدها صينية الشاي ممتلئة بكامل

أمي: تفقع زغرودة أخرى مجدداً وتحمد الله كثيراً ثم تضيف: والله يا أم محمد المال الحلال ما بروح ... رب يعبد .

نسوان الحارة بدأن بالتوافد على بيت أم محمد التي راحت توسع ديوانها بمزيد من الفرشات والوسائد والكراسي ...

كان أبو محمد قد ربط البغل في أعلى البستان وراح يطعمه مما لذ وطاب من الحشيش والتبن حتى وصل به الأمر ليطعمه شيبس الأطفال ودمعة احتبسها في عينيه فرحاً ..

أبو محمد يعد برنامج البغل للموسم القادم، ما بين حراثة كرم النطاف ونقل العنب منه إلى السوق، وسيحرث كرم الثلاجة وكرم الداخلة أيضا، وربما سيساعد الآخرين بإعارة بغله ..

نسي أبو محمد أن يعاقب السارق الذي حرمه من البغل ست سنوات وربما سامحه على فعلته .....

احتجاج:

وفد غاضب من الحارة التحتا يتوشّح السواد بمدارق مطرزة بعناية فائقة في طريقة لبيت أمي، بعض النسوة يمسكن بأيدي أحفادهن، والطريق إلى الحارة الفوقا

قيادة الوفد كانت من نصيب جميلة التي طرقت الباب بعنف وما أن طرقت السلام حتى انفجرت قائلة لأمي:

يا خيه ابنك محمود لويه بكتب عنّا على البليه الماخوذ وفاضحنا؟؟؟

تتفاجأ أمي بدهشة: وشيه السولافة؟ ابني محمود ويش يجيبه ليكن يا نسوان؟؟

تتكاثر الكلمات على الشفاه ولم يعد هناك شيء يفهم

تصيح أمي: يا نسوان وحده اتفهمني ابني ويش كاتب عنكن؟؟

ثم تتصفح الوجوه لعلها تجد إجابة .

يعم الصمت وتنطق واحدة: والله أنا ما بعرف القراية ولا الكتابة .

أخرى تضيف وأنا كمان.

أم مريم: بقولوا بكتب عن نسوان الحارة رايحات على عرس وبغنن في القطار .

أم احمد: بقولوا كاتب إني أخذت طبق بيض من جميلة يوم جبت ابني سالم.

أمي تقول ساخرة: هذي هي السولافة؟! يلعن أبو شيبتكن والله قطعتن قلبي..

تنفجر النسوة بالضحك ...ثم تلوذ أمي لتحضير سخان القهوة السادة ...

في تلك الأثناء كان ملف إبراهيم ابن تركية الذي طلق زوجته فايزة بنت رسمية على جدول أعمال الجلسة. ..

يمه . . . ودي حلو:

ما بعد العصر بقليل أرسلتني أمي لشراء باكيت ناشد من دكان الحجة ختمة، قالت: خلي الحجة ختمة اتقيده على الدفتر.

عبثا تحاول أمي أن تخفي موضوع الزيارة عني، فقد كنت أمسك بردن مدرقتها أينما ذهبت .

وصلنا إلى بيت فايزة التي أنجبت طفلها الرابع تواً، كانت نسوة الحارة قد سبقن أمي، أم عبد الله، وأم عدنان،أم ابراهيم و عايشة والحجة شاهة، وربما مجموعة أخرى لم أعد اذكرها ...

رائحة القرفة تزاحم الهواء، وأم إبراهيم غادرت الغرفة،قالت إنها ستشرب سيجارة في الخارج وستعود .

أجلس تحت قدمي أمي، أسحب كاسة القرفة من أمامها تصفعني فأبكي .

تلتفت الحجة رسمية والدة النفسا إليّ، يتعالى صوتها محتجا:

يا أم ناصر لا تضربية هسا بجيب ليه كاسة قرفة .

تجيب أمي بهمس في أذني: يقطعك ربي يا عيل فضحتنا اسكت .

ما أن تحضر خالتي رسمية كاسة القرفة الساخنة حتى أبدأ العبث بها.

تضربني أمي على يدي وهي تنهرني: يا عيل لا اتchب الكاسة .. .

أنظر إلى أمي وأنا أتباكى: يمه ودي خبزة

تتجاهلني أمي.

أرفع وتيرة الصوت مع الإطالة والاستمرار: يمه ودي خبززززه ....يمه يمه يمه، ودي خبزة

ترد أمي غاضبه بعد أن أقول يمه: تجيبني بـ غمة ...

خالتي رسمية تنتبه لي وتحضر رغيف خبز مع ٣ أقراص جبنة

أكلت ربع رغيف ربما وقرصاً واحداً من الجبنة

ثم أدير رأسي إلى أمي: يمه ودي حلو، يمه يمه يمه ......ودي حلوووووووووووو حلو ودي يمه ....

في تلك اللحظة كانت أمي تتمنى لو أن حذاءها البلاستيكي في يدها ..

شتلتني أمي من ذراعي واعتذرت من النسوة،قالت أنها ستعود بعد قليل

دخلنا البيت وأحكمت إغلاق الأبواب والنوافذ ....

ليس هناك إلاّ صيحات طفل يشتهي حبة حلو ناشد .

سكتش نسوان حارتنا:

كالعادة أمد رأسي من طرف الباب وأسترق السمع، أمي و جارتنا أم عبدالله تجلسان في طرف الحوش، أمي تسأل أم عبدالله فيما إذا كانت سميرة بنت عايشة رجعت لزوجها أم ما زالت (مغتاظة) عند أهلها؟؟ وأم عبدالله أجابت أن هناك محاولات جادة لإرجاعها إلى بيتها ثم أضافت: يا خيتي يا فاطمة هذي البنت عينها نادرة وقوية من مصغرها ما بنخاف عليها ...

انتبهت أمي لي ....و جارت أم عبدالله قليلا بحديثها وفي حقيقة الأمر كانت تغافلني حتى تخلع حذاءها البلاستيكي وتطلقه إلى رأسي ... ثم أردفت تقول (يخس الله يلعنك أنت وهالعادة ما بتبطلها، يا عيل اقلب خلقتك عن وجهي...

غادرت المكان دون أن أعلم فيما إذا كانت سميرة رجعت لزوجها أم لا ..

ويكليكس نسوان جارتنا:

أمي تكذب:

صباحات حوش دارنا

chنة جارتنا أم يوسف قالت لأمي وهي تصف حماتها بأسوأ الكلمات وتشكي لها سوء معشرها ....حماتي قوية ومفترية ليس هذا فقط بل قالت أن زوجها يوسف ضعيف الشخصية أمام أمه وأنه لا يستطيع التصرف ولا يحسنه ....قالت أيضا إنها لم تعد تحتمل عيشتها المقرفة .

وعندما جاءت أم يوسف لزيارتنا وفي قلبها الكثير من الغل على زوجة ابنها يوسف ... بدأت أمي بالكذب عليها فقالت لها: أن زوجة يوسف أخبرتها أنها تحبك وإنها دائما تخطيء في حقك وأنك تسامحينها وتحتملين أخطاءها لأنك تملكين قلبا كقلب أمها . وقالت أيضا أن يوسف رجل حنون يحب أمه ولا يستطيع أن يغضبها ......

لم تعجبني ردة فعل أم يوسف بعد أن أصبحت كرماد نار (غصة في حلقي)

ما بعد العصر بقليل ...جاءت جارتنا أم يوسف برفقة جنتها والابتسامة تملأ وجهها ..

ماتت أم يوسف قبل أن أخبرها الحقيقة .

أم عاهد المدادحة:

نبيهه السبوع زوجة المرحوم مبارك بن شتيان المدادحة.

سألتُ أمي عن أم عاهد ،قالت : هي زكيّة اللسان طيبة الروح كريمة النفس ،هكذا اختزلت أمي كل اللغة في امرأة بحجم وطن..

لم يكن يوما عاديا ،فقد كانت الكرك تستعد لوداع جثمان المرحوم عاطف بن رفيفان المجالي إلى مقبرة النبي نوح ، تنقلب الكرك رأسا على عقب كلما مات أحد أبنائها ، تخطط نسوة الحي للوقوف على أطراف الشوارع واللحاق بالنعش إلى أقصى ما يمكن أن يسمح به عقل المدينة الجمعي ،،،

صباحات الكرك الحزينة ، يطرق ابن أبي علي الطراونة الأصفر باب أم عاهد و يخبرها أن أبا عاهد اتصل بهاتفهم ويقول أن الحاج ممدوح الصرايرة سيأتي للمشاركة في الجنازة وبرفقته عدد من الوزراء قد يصل عددهم الى خمسة عشر رجلا وربما أكثر وعليها أن تحضّر الغداء.

انتهت الرسالة وثار بركان أم عاهد ،الساعة الآن تجاوزت العاشرة بقليل والوقت يمضي بسرعة ، خرجت من بيتها تحمل طفل لم يتجاوز عامه الأول والثاني يمسك بيدها ، في تلك الأثناء كان محمد الجغيلي المدادحة يعبر الشارع. ،نادته بصوت

المرتبك قالت :

يا محمد انخاك والا انخى الذيب؟! .

شمّر محمد عن ذراعية وأجاب : خسى الذيب ابشري يا أم عاهد .

أم عاهد : جاينا ضيوف من عمان على الغدا وابو عاهد في القطرانة وما عندي ناس ودي أربع ذبايح .

كل ما قاله محمد (ابشري) وهمّ مسرعا الى حيث لا تدري .

دخلت أم عاهد إلى حوش إحدى الجارات وقبل أن تلقي السلام قالت: الفزعة يا النشميات ..

رافقتها بعض النسوة إلى البيت لتحضير المريس والأرز ،،، ما هي إلاّ ساعة أو أكثر بقليل كان محمد الجغيلي قد أحضر اللحم مقطع ومنظف وجاهز للطبخ ،قال إنه اشترى الذبائح من تاجر الحلال عوض العقول الضمور ،،

كانت أم عاهد قد جهّزت قدور اللحم وجهّزت الصاج لخبز المزيد من الخبز ،،،،

في تلك الأثناء كان أبو عاهد يقف على طرف الطريق الصحراوي في انتظار من يقله إلى الكرك ، والنيران تشتعل في صدره ،،،

الوقت يمضي بسرعة والقدر يفور كقلب أبي عاهد ، و المصلون يشيعون جثمان المرحوم إلى المقبرة ،،،،

تنتهي مراسم الدفن وينتشر الناس كل إلى ما هو ذاهب إليه ، الحاج ممدوح يصعد بضيوفه إلى بيت أبي عاهد في أعلى شارع الخضر ،،،فيما كان في انتظاره الحاج اشتيان وأبناؤه وأولاد عمه وعدد غفير من الرجال الذين شاركوا في تشييع الجنازة.

يصل أبو عاهد إلى مدخل الحي ، عدد كبير من السيارات أمام بيته، يخاطب نفسه ويضرب كفا بكف (أية مصيبة حلّت على رأسي؟) ثم يدعو الله بالستر والعافية،

ما أن دخل إلى الصالة حتى وجد سدور المناسف تفترش الطاولات الخشبية ،،،

الحاج شتيان يدعو الضيوف إلى ما يسره الله ،،، تنفرج أسارير أبي عاهد، يترك كل شيء ويدخل إلى المطبخ ،،،، يبتسم ويصرخ بأعلى صوته : الله يبيض وجهك يا أم عاهد مثل ما بيضّت وجهي يا بنت الأصول .

ابتسم أبو عاهد و الدمعة تقطر من عينيه فرحا.

لله درك يا نبيهه كيف لك أن تكوني امرأة بألف رجل أو يزيد ،،!!!

أربعون عاما مضت ، وما زالت أم عاهد تذكر كل الوجوه التي أحببناها وغادرتنا قسرا . تذكر حزن المدينة على أبنائها ،أنين البيوت وفقد الشوارع، نحيب النساء وبكاء الأطفال

لم يعد شارع الخضر يتسع لسيارة الحاج ممدوح ولا لدمعة أبي عاهد التي ذرفها على طبق من حب ....

أم عاهد ...ألا تعلمي أن شارع الخضر يتيم ؟!!!!

بداية النهاية:

رجوت أمي أن تستضيف نسوان حارتنا في ديوانها .

تنهيدة طويلة امتلأ بها قلبها ثم قالت: كيف ودي أجيبهن؟ والله يمه نسوان حارتنا كل وحدة ودها بلنص دفاع مدني ينقلها

يااااااه كم هي قاسية تلك السنون؟

كيف فعلت فعلها على غفلة مني؟

ليتني بقيت طفلاً ساذجاً أجوب الحارات وأنا امسك بـ (ردن مدرقة أمي) وأتنقل ما بين حجر أم صالح وحجر أم عدنان وأغفو قليلا في حضن جدتي..

هي حنونة لن توقظني من نومي ..

كبرنا وكبرت أمي وفعلت الأيام فعلها ...

شقيقي محمد سافر إلى العمل في الخليج بعد أن تقاعد من الجيش وأمي ما زالت تناديه بـ (حمودة) وأنا ظلت تصرّ على أن تناديني بـ (يا عيّل) وكأنها ترفض أن نكبر ......

كبرنا يا أمي ... سافر محمد يحمل في يده حقيبة وفي قلبه وطن ...

وأنا صرت طفلاً كبيراً أبحث عني تحت قدميك.

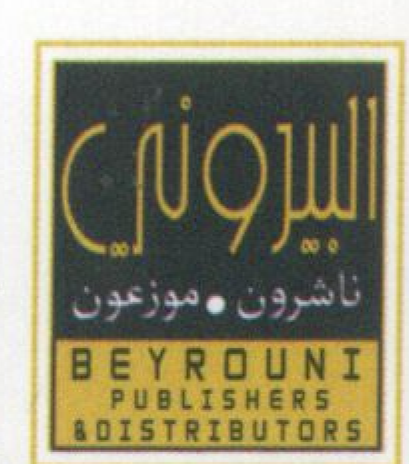
قلت لأمي مازحاً شامتاً: إنك لم تكوني تجيدين التصويب إلى الأهداف المتحركة حينما كنت تقذفينني بحذائك وأنا أهرب ... ابتسمت وهي تقول: وهل كنت تعتقد أني أنوي أن أصيبك ؟؟!!!

* * * * *

وكان للشمس والظل على جدران حارتنا أثر في نفسي لم يبلغه من حينها شيء، وكنت حين يسألني أحد كيف لا أبتهج حين أرى شيئا من أعمال دافنشي أو بيكاسو أخبرهم أن من رأى تلك الشقوق المتعرجة على بعض جدران بيوتها المسكونة بالنور لن ترضي ذائقته بعدها لوحة أخرى قط !

محمود الشمايلة





شركة دار البيروني للنشر والتوزيع
الأردن - عمان - وسط البلد - شارع السلط - بناية رقم (٢٣)
ص.ب: ١٨٢٢١٢ عمان ١١١١٨ - تليفاكس: ٩٦٢٦٤٦٥١٠٠٤+
Email:beyrouni.publisher@gmail.com